أخلاق المسؤولية وعار الصهيونية

«قراءة في أخلاق الأخلاق عند ليفيناس»

تأليف:

أ.د. زروخي الدراجي

الطبعة الأولى: جوان 2020

أخلاق المسؤولية وعار الصهيونية

أ.د.الدراجي زروخي

هذا الكتاب

يتناول هذا الكتاب فلسفة ليفيناس الأخلاقية التي تشكل فسيفساء تضم الفلسفة الكانطية و الفلسفة الوجودية و الظواهرية و حتى الفكر الديني اليهودي قطعها، فتكوين ليفيناس هو مثابة هيكلة للفلسفة الغربية و هيكلة حتى للفكر الديني اليهودي الذي تشبع منه خاصة المستمد من الكتب المقدسة، و لا يعني هذا أن فلسفة ليفيناس تتوافق مع ما جاء في الفكر الديني اليهودي بل كانت في كثير من الاحيان ابداع و تعديل للكثير من الافكار المتطرفة، كمايسلط هذا الكتاب الضوء على أخلاق الغيرية و أخلاق الاعتراف و أخلاق الاختلاف و التي تنبثق عنها أخلاق المسؤولية التي نلمسها ضمنيا في فلسفة ليفيناس ، و نتساءل لماذا نادى ليفيناس بهذه الأخلاق نظريا و تجاهلها واقعيا أمام ما ترتكبه الصهيونية من جرائم تمثل في حقيقتها انتهاك لأخلاق المسؤولية ؟ هذا الصمت قابله اعتراف من قبل بعض المفكرين من بينهم وليم كار الذي بين وجه العنصرية و غياب أخلاق المسؤولية لدى الحركة الصهيونية و اليهود، و ليس لليهود أي حرج في أن نصفهم بأي وصف مهما كان سيئا، عكس مجتمعاتنا التي تقضي جهدا كبيرا لتثبت للعالم أنها تتبنى فلسفة العيش المشترك و الاختلاف، دون أن تجد آذانا صاغية ، ويبين الكتاب حاجة الإنسان اليوم إلى أخلاق المسؤولية كسياسة عالمية و ليس كتنظير فلسفي فقط .

ISBN : 6-18-670-9931-978

سلسلة الكتب الأكاديمية لكلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
جامعة محمد بوضياف بالمسيلة

ردمد:ISSN: 2588-1590

أخلاق المسؤولية وعار الصهيونية

" قراءة في أخلاق الأخلاق عند ليفيناس "

تأليف

أ.د. زروخي الدراجي

ISBN :978-9931-670-18-6

الطبعة الأولى جوان 2020

بسم الله الرحمن الرحيم

إهـــــــداء

إلى الشعب الفلسطيني الثائر والمقاوم
في سبيل حريته، وفي سبيـــــل تحرير
عروس المسلمين القدس السجينة

شروط النشر بالسلسلة

1/ سلسلة الكتب الأكاديمية لكلية العلوم الإنسانية والاجتماعية جامعة المسيلة، سلسلة علمية أكاديمية بحتة. ولذا لا تنشر إلا الكتب التي تتوفر على الصبغة العلمية ذات الطابع الأكاديمي البحت. تأسست سنة 1438 هـ / 2017 م.

2/ تفتح السلسلة لنشر كتب أساتذة كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، وكل ما يتقاطع مع تخصصات العلوم الإنسانية والاجتماعية ولو من تأليف أساتذة كليات أخرى بجامعة محمد بوضياف بالمسيلة.

3/ لا تنشر الكلية في سلسلتها الأكاديمية هذه الكتب المرتبطة بعقود سارية المفعول مع أي مطبعة أو دار نشر أخرى وطنية كانت أو دولية. والمؤلف وحده مسؤول عن ذلك ويتحمل التبعات القانونية كاملة في حال حدوث العكس.

4/ تخضع كتب السلسلة قبل الموافقة على نشرها إلى الخبرة العلمية الأكاديمية، حيث يعرض الكتاب على 03 خبراء في التخصص، يعينهم المشرف على السلسلة. الذي بإمكانه أن يطلب التعديل من المؤلف وفق ما تراه تقارير الخبراء.

5/ اللغات المعتمدة للنشر بالسلسلة هي: العربية، الإنجليزية الفرنسية، الألمانية، التركية، الإسبانية.

6/ غلاف الكتاب من اختيار المؤلف بعد الموافقة على نشر الكتاب بالسلسلة. مع احترام الخصائص العامة للسلسلة باعتبارها سلسلة موحدة.

7/ ما ينشر في السلسلة لا يعبر بالضرورة عن رأي الكلية، وإنما هي أفكار ملك لصاحبها في إطار الملكية والحرية الفكرية، وقرارات الخبراء المختصين فاصلة.

المشرف عن السلسلة الدكتور مصطفى عبيد.

يقول عز وجل في كتابه الكريم

﴿ لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾

صدق الله العظيم

ليفيناس

" أن نتكلم هو في نفس الوقت أن نتعرف على الآخر، وهذا التعاطي الذي يتطلبه الكلام هو بالتحديد العمل بدون عنف "

وليم كار

" كما شرحنا دور المنظمات الخفية التابعة لسادة المال العالميين اليهود المنتشرة كالأخطبوط في قلب العديد من دول أوروبا و غيرها و التي كانت تهيئ هذه الدول للحرب و تدفعها إليها "

جاكلين روز

" ويبدو أن الصهيونية في تكرار غريب للخلاصية تتطلب الرفض أو القبول من دون شروط، فإما أن تكون صهيونيا و إما مناهضا للصهيونية دون جدال"

مقدمة

مقدمة

إن استقراء سيرورة الفكر الأخلاقي تجعلنا ندرك تقلبا و تغيرا فيه و في أبعاده من حقبة إلى حقبة و من مجتمع إلى مجتمع، فانتقلنا بموجب هذه السيرورة من أخلاق القوة والمنفعة إلى أخلاق المسؤولية، التي تأسست انطلاقا من أخلاق الغيرية وأخلاق الحياة وأخلاق المسؤولية تشكل أحد المفاهيم المركزية ليس فقط في الفلسفة المعاصرة بل في كل مجالات العلوم الإنسانية والاجتماعية وأخلاق المسؤولية نابعة من إتيقا الغيرية التي تعد المخرج الذي ينهي الفلسفات المتمركزة على الذات، وقدم ليفيناس للفلسفة المعاصرة أعمالا جليلة فيما يخص مبحث الأخلاق، مبرزا العلاقة بين الأنا والآخر القائمة على المحبة والصداقة والعطاء الإنساني. وترتبط أخلاق المسؤولية ارتباطا وثيقا بأخلاق المعنى وأخلاق الحياة، وهي فلسفة قائمة على تبني فكرة المسؤولية ، هذه الفلسفة تتخذ من المسؤولية أساسا لحب الآخر.

وتحاول أخلاق المسؤولية أن تحررنا من استفحال النظرة الذاتية في فلسفة الأخلاق، الذي كان سببا في الصراع الفكري وتبادل الاتهامات الفلسفية والنيل من مذهب الآخر، ولم يتوقف الصراع على المستوى الفلسفي، بل تحول إلى صراع سياسي، وكثيرا ما أدى إلى قيام فتن وحروب دفعت البشرية ثمنها غاليا، والمتتبع

لتاريخ الفكر الفلسفي الأخلاقي سيدرك انتعاش القيم الأخلاقية التي تنادي بها البراغماتية وفلسفة القوة، هاتين الفلسفتين كان لهما تأثير على الحياة الإنسانية، وطغيان الجانب المادي عليها، كما أنعشت هذه الفلسفات فكرة التسلط و الاستبداد، تسلط واستبداد القوي على الضعيف خاصة في بعض الفلسفات الأوربية الحديثة والمعاصرة بداية من ميكيافلي ووصولا إلى نيتشه وجون ديوي وغيره من البراغماتيين، لكن هذه الأخلاق في نظر العديد من الفلاسفة ومن بينهم ليفيناس وهانز يوناس واكسل هونيث وهابرماس تحتاج إلى إعادة النظر فيها وتجديد ما صلح منها، ورفض ما يجب رفضه منها، واستبدالها بأخلاق الغيرية، وهي فكرة فلسفية معاصرة حتى وإن كان لديها امتدادات في الفلسفة القديمة، وتهتم أخلاق الغيرية بعلاقة الأنا بالأخر، ويصبح الآخر أهم عنصر لتشكيل هوية الذات فهو يشير إلى تعالي الوجه، وجاءت فلسفة ليفيناس عن الغيرية لتؤكد أن غيرية الوجه تتجاوز المحسوس وتتعدى إلى المطلق فالآخر بالنسبة لي هو جزء من وجودي وعلي احترامه ، بل إن احترام الذات للآخر يعني احترام الذات لنفسها ويعكس مسؤولية الأنا وقوتها في الاحتواء والتعامل بلغة التسامح لذا يجب تجاوز النظرة العدائية للآخر وتعويضها بالتكامل، تكامل تتحد فيه الأنا بغيرها، والإشكال المطروح هنا : كيف يكون حب الآخر

أساسا لأخلاق المسؤولية عند ليفيناس؟ وهل النظرة الليفيناسية للأخر نظرة كونية عملية أم انها مجرد فلسفة نظرية؟ هل هناك توافق وانسجام بين مواقف ليفيناس وبين فلسفته الرامية الى تحقيق أخلاق المسؤولية؟ ما موقف ليفيناس من جرائم الصهيونية، وما محل فلسفته من إبادة الفلسطيني؟

إن هذه الفلسفة تبدو مطمئنة من الجانب النظري، لكنها محاطة بألغام وغموض .فهل ينتظر ليفيناس من مجتمعات موسومة بالضعف أن تتبنى أخلاق الاعتراف وأخلاق الغيرية و أخلاق المسؤولية أم أنه يوجه فلسفته للأقوياء؟ كيف ينظر ليفيناس إلى مجتمعات تعاني من التهميش وماذا ينتظر منها؟ كيف ينظر إلى العدوانية؟ وماذا فعل لمقاومتها؟ أم أنه ينتظرها حتى تكف عن عدوانيتها؟ ضبابية كبيرة تغلف أخلاق المسؤولية عند ليفيناس ونلمسها واضحة في فكره، وهذه الضبابية ستزول مع المفكرة البريطانية جاكلين روز، وكذلك مع وليم كار، إذ تجاوز هذين الأخيرين صمت ليفيناس، و أجهرا بالحقيقة المغيبة، وهذا ما سيتناوله كتابي هذا بعد تحليل وشرح فلسفة ليفيناس الأخلاقية المتمثلة في أخلاق الغيرية وأخلاق المسؤولية. و أرجو من الله التوفيق و السداد.

أ.د زروخي الدراجي جامعة محمد بوضياف -المسيلة

أولا/ حياة ليفيناس و نشأة فلسفته

" فالنسبة لي أن الدين الصحيح هو الحق هو الذي نفكر فيه ونخمن فيه انطلاقا من أوامر و كلام الله المتمثلة في صورة الآخر"

ليفيناس

أولا/ حياة ليفيناس و نشأة فلسفته

يمكن القول أن فلسفة ليفيناس تشكل فسيفساء تصنع الفلسفة الكانطية والفلسفة الوجودية والظواهرية وحتى الفكر الديني قطعها فتكوين ليفيناس بمثابة هيكلة للفلسفة الغربية، وهيكلة حتى للفكر الديني اليهودي الذي تشبع منه خاصة المستمد من الكتب المقدسة، ولا يعني هذا أن فلسفة ليفيناس تعتبر انعكاسا لما هو موجود في الفكر الديني اليهودي، بل كانت في كثير من الأحيان ابداع وتعديل للكثير من الأفكار المتطرفة وتجديد للأفكار الجيدة.

1/ حياة ليفيناس

إيمانويل ليفيناس (Emmanuel Levinas) فيلسوف فرنسي و يدين باليهودية، يعتبر من الكانطيين الجدد، عاش في الفترة الممتدة بين (1906. 1995م) و يعتبر مؤسس أخلاق الغيرية " إيتيقا الغيريّة " وكاتب للعديد من التفاسير حول التوراة، ساهم في التّعريف بفينومينولوجيا هوسّرل في فرنسا. درّس الفلسفة بجامعة بواتياي سنة" 1964" ثمّ انتقل بعد ذلك إلى جامعة نانتار "1967م " وأخيرا إلى السّوربون سنة" 1973م".

وقدم أطروحة الدكتوراه عام 1930م تحت عنوان "نظرية الحدس في فيسيولوجيا هوسرل" وقام بترجمة أعمال هيدجر و هوسرل إلى اللغة الفرنسية ، وتمحورت فلسفة ليفيناس حول الإتيقا والغيرية، له مؤلفات عديدة أشهرها الأخلاق واللانهائي، الزمان والآخر، إنسانية الإنسان الآخر

وغيرها، ويعتبر ليفيناس السباق الى تأسيس أخلاق الغيرية التي مهدت الى ظهور أخلاق المسؤولية و هذا ما بينته الفيلسوفة الفرنسية جاكلين روس*. في كتابها الفكر الاخلاقي المعاصر، وتعتبر هذه الفيلسوفة مجددة ومفسرة للفكر الأخلاقي عند ليفيناس.

2/الدين كمرجع في فلسفة ايمانويل ليفيناس

يعتبر التراث اليهودي بمثابة المنبع الاساسي الذي استقى منه ليفيناس تكوينه و فلسفته و ثقافته و فكره، و هذا ما يظهر من خلال القراءات والتأويلات المتعددة التي قدمها ليفيناس لما جاء في التوراة والتلمود على حد سواء " فقد ربط ليفيناس بالدين اليهودي، نظرا لتشابك بعض القيم بينهما كمحبة الغير وقبول الآخر حيث يعتبر ليفيناس التوراة يؤسس للتفكير الأخلاقي، فهو بمثابة كتاب الكتب إذ يعتقد ليفيناس أن التوراة هي الكتاب الذي تقال فيه الأشياء الأولى والتي يتوجب قولها حتى تكون الحياة الإنسانية ذات معنى ودلالة "[1].

لقد كان للدين اليهودي أثر بالغ في تطور فكر و ثقافة ليفيناس ويمكن القول انه أصبح " مفكرا يهوديا بجدارة من خلال كتاباته لمقالات عديد ومتنوعة في المجال الديني خصوصا، بما فيه تلك التعليقات التلمودية، وكان ذلك بعد الحرب العالمية الثانية "[2].

لقد كان للديانة اليهودية نصيب هام في مختلف كتابات وأعمال ليفيناس فقد بدأ " مساره في كوفنو في لتوانيا حيث تتقاطع لغات

ومعارف ضمن طائفة يهودية تاريخها استثنائي نسميها الإرث التلمودي "[3]. حيث نجده يعترف بهذا قائلا " فإذا كانت التوراة ناتجة عن النبوة شاهدة له وفي هذا المقام أنا لا أقر بأن التجربة الأخلاقية مودعة على شكل كتابة، وأنا في ذلك على يقين، و لكن هذا لا يتطابق مع إنسانية الإنسان باعتباره مسؤولا في خدمة الآخر"[4].بمعنى أن المصدر الأول لأخلاق الانسان هو الكتاب المقدس والذي يتمثل في التوراة، وهذا الاعتراف يجعلنا نتساءل عن أخلاق العنصرية الموجودة على مستوى هذا الكتاب المقدس لدى اليهود، و ما موقف ليفيناس منها؟ إن إخلاص ليفيناس لليهودية جعله يقبل التوراة و التلمود على حد سواء دون أدنى شك أو نقد، وهنا تكمن المشكلة والتناقض الذي سنلمسه لاحقا في أخلاق المسؤولية لديه.

ومن خلال ما أقر به في كتابه" Ethics and infinity " نجد العلاقة واضحة بين الإرث الديني اليهودي والتجربة الأخلاقية من أجل خدمة إنسانية الإنسان معتبرا الآخر مركز التجربة الإنسانية.

ولا يمكن أن نتجاهل تربية ليفيناس و التي كانت وسط بيئة يهودية لأن "جمهورية لتوانيا التي ترعرع فيها كانت مركز للدراسات التلمودية التي تركت أثرها على معظم أعماله"[5]. و كان ليفيناس مديرا للمدرسة الإسرائيلية الشرقية، و كان يقدم فيها محاضراته التلمودية، والتي توجت ببعض أعماله في هذا المجال على غرار الحرية الصعبة سنة 1963م.

وكذلك القراءات التلمودية الأربعة سنة 1968م، و الشروحات الخمسة الجديد للقراءة التلمودية سنة 1977م[6].

وفي كتابه "De loblitération" نجده يتجاوز البعد لديني مواجها الذاتية الطاغية وقد جعل من الدين الصورة الإتيقية التي تساهم في مواجهة وغطرسة الذاتية المختزلة للآخر وهذا ما يظهر في قوله " فالنسبة لي أن الدين الصحيح هو الحق هو الذي نفكر فيه ونخمن فيه انطلاقا من أوامر وكلام الله المتمثلة في صورة الآخر"[7].

وهذا التذبذب في آراء ليفيناس يجعلنا ندرك رفضه الباطني للفكر العنصري الموجود سواء في التوراة أو التلمود**، لكن لم يمتلك القدرة على المواجهة على الجرائم الموجودة على مستوى الفكر الصهيوني و اليهودي و التي نلمسها صريحة في التلمود.

إن الدين المتمثل في التوراة يعتبر بالنسبة إلى ليفيناس المصدر والأصل خاصة ما تعلق بالتفكير الأخلاقي إذ أن " التوراة * هي الكتاب الذي تقال فيه الأشياء الأولى والتي يتوجب قولها حتى تكون الحياة الإنسانية ذات معنى ودلالة "[8].

إن الكتاب المقدس حسب ليفيناس له دور من خلال التوراة والتلمود حيث ورد في التلمود " إذا لم أكن من أجل ذاتي من سيكون لأجلي؟ وإذا لم يكن الآن فمتى؟ وإذا كانت فقط من أجل ذاتي فمن أكون؟ هذه جمل مختصرة للتلمود الذي يشكل إحدى أهم المرجعيات الدينية

لفيلسوف الغيرية والتي تحمل معنى : هل يمكن إقامة علاقة الأخر مع الأنا؟ ونحده اقتبس عبارة من التلمود " أن يحب اليهودي التوراة (الشريعة والقانون) أكثر من الإله "[9]. فالتلمود عند ليفيناس يبدو مقدسا أكثر من قداسة الإله، وفي هذا تعصب حقيقي للكتاب المقدس لديه ، وبهذا يلغي فكرة الإله عند غيره من الأديان.

إن التوراة عند ليفيناس تأخذ مكانة مميزة في تأسيس الفلسفة الدينية اليهودية، والآخر يأخذ مكان الإله في فلسفة ليفيناس الأخلاقية وهنا نجد دور التعالي الديني لدى ليفيناس، حيث يصبح للأخلاق مكانتها المتمثلة من خلال أنني في الوجه أدرك وأسمع كلام الله، وكأن الآخر هو صوت الله فينا، وهو الحضور الحقيقي الله يقول ليفيناس " إنني لا أقول إن الآخر هو الله بل أقول إنني أسمع في وجهه كلام الله "[10]. و الإخلاص لله في نظر ليفيناس يظهر من خلال حبنا للآخر.

وتجدر الإشارة إلى أن ليفيناس استمد جزء كبيرا من فلسفته في الحياة من التراث اليهودي خاصته تأويلات حاييم فلوزنار المتحررة للتوراة واعتبار هذا الكتاب " الكلمات الأولى التي ينبغي أن يصرح بها من أجل أن يكون للحياة الإنسانية معنى"[11]، كما نجده قد خصص محور رئيسي في كتابه" Totalité et infini " وأطلق عليه اسم" متعة الحياة ". فلا توجد لذة تخلو من الألم، فنحن نسعد بالسعادة التي تولد من رحم التعاسة والمعاناة و التضحية[12].

إن متعة الحياة عند ليفيناس هي اللذة الناشئة من الألم فلا توجد سعادة بلا شقاء. وهذا ما نلمسه في فلسفة المتصوفة اليهود .

كما نجد أن التوراة تحمل وصايا وإرشادات للمجتمع اليهودي، وهي وصايا سيدنا موسى عليه السلام لبني إسرائيل طبعا فيها ما حرف فيما بعد كما هو معلوم ، وجاءت لتنظم الحياة ولتفادي الصراع بين الأقارب فقد ورد في التلمود " وكما تروي الأسطورة أن بني يشمعيل طلب إليهم أن يتبعوا الشريعة فسألوا : فعلام (تنص الشريعة)؟ قيل لهم : " لا تسرق " ... ثم أنه لما طولب بنو إسرائيل بإتباع الشريعة أجاب الشعب: « سمعنا وأطعنا » "[13]. ومن بين الوصايا الأخرى والإرشادات: (لاتزن، لا تقتل، ولا تشتهي امرأة غيرك، ولا شيء لقريبك[14]. وأخذ ليفيناس هذه النصوص الدينية وصاغها في تأسيس علاقة أخلاقية جاعلا منها أساس العلاقة بين الأنا والآخر فالمقدس أو المتعالي لدى ليفيناس يعيد الأخلاق النظرية بالعودة إلى الدين والتقاليد الدينية[15].

لكن تأسيسه للأخلاق ليس على معيار ديني خالص، بل هي أخلاق بصبغة دينية معتمدا على التقاليد والفلسفة الغربية المعاصرة خاصة منها الكانطية .

ونشير هنا تثمينا للمرجعية اليهودية لفكر ليفيناس أنه التقى بمفكر يهودي يدعى شوشاني [16] .حيث قام هذا الأخير بدعوته إلى تعلم وقراءة التلمود، ولقنه اللغة العبرية والروسية، وهذا عندما كان مديرا

لدار المعلمين، كما نجده في مقدمة كتابه "أربع قراءات تلمودية" يقول" النص التلمودي هو صراع فكري وانفتاح جاف، ومجرد على الأسئلة المثيرة للانتباه التي من خلالها يعمل المعلقين على فتح طريق دون أن ينخدعوا بالمظاهر والمناقشات البيزنطية "[17].

وفي هذه المقدمة نجده يشيد بشوشاني الذي وصفه بأنه سيد مرموق، والذي أظهر له كيف يمكن أن تكون الطريقة الحقيقية والصحيحة للتعليق، ويتجلى هذا من خلال حواره مع رتشارد كيرني حيث يعتبر ليفيناس أن بلد المنشأ هو ليتوانيا ، حيث كانت الثقافة اليهودية محترمة ومفضلة من قبل المثقفين، وكان تأويل التوراة ينمو ويتطور فتعلم قراءة التوراة باللغة العبرية، ولكن اهتمامه بالفكر اليهودي أتى في وقت متأخر بعد الحرب العالمية الثانية. وللإشارة فإن مدة مسار تكوينه الديني من (1957-1963) و(1973-1977) حيث قدم أولى محاضراته " دروس تلمودية " بحضور نخبة مثقفة على شكل مؤتمرات وندوات باللغة الفرنسية[18].

ومن خلال ندواته يصل إلى أن الثقافة اليهودية متجددة والتأويل مزدهر من قبل الطبقة المثقفة، لكن اهتمام ليفيناس بالثقافة اليهودية أتى متأخرا لكنه كان مهما بالنسبة إليه. ما يجب التنويه إليه أن هذه الأخلاق التي تحدد علاقة الأنا بالآخر في التلمود هي أخلاق داخلية بين اليهود أنفسهم، لكن بالنسبة للآخر المغاير لهم جنسا و دينا، فهذا أمر مختلف، لذا لا نجد تلميحا مباشرا أو حديثا واضحا لليفيناس حول

معاملة اليهود و الصهاينة للآخر المختلف من خلال التعذيب و الإبادة الحاصلة مع فلسطين أو نقد هذه السياسة الجائرة و المنتهكة لحرمة الآخر - الفلسطيني خاصة - بشكل صارم رغم بعض مواقفه مع الإنسانية خاصة موقفه من مجازر صبرا و شتيلا، اذ انكر هذا و نادى باحترام قدسية الإنسان لأنها خط احمر لا يمكن تجاوزه ،عدا هذا لم نلمس وجودا واضحا و شجاعا لمواقف ليفيناس ضد السياسة اليهودية والصهيونية.

ويستمد ليفيناس أحيانا بعض أفكاره من المسيحية خاصة في حديثه عن العلاقة بين الإبن والأب، فالمسيحية ترمي في نظره إلى حلول روح الإله في المسيح والمشاركة بين الإله والإنسان هذا من ناحية، أما من الناحية الأخرى نجده يعتقد أن الكتاب المقدس التوراة يبين أن روح الإله موجودة في الشعب المختار[19].

وفي هذا دلالة أن هناك تياران دينيان لدى ليفيناس، يتجلى الأثر المسيحي في تفكيره بإقامة العلاقة الأبوية والدينية (الإبن) أما الأثر اليهودي فيتجلى في مسألة الاحترام والتعامل مع الآخر اليهودي لا غير رغم طغيان الأثر اليهودي في فسفته و توجهه في الحياة.

3/ دور الفلسفة الغربية في هيكلة فلسفة ليفيناس :

تنوعت مشارب ليفيناس الفكرية بداية من الفلسفة اليونانية إذ تأثر بالفلسفة الأفلاطونية وأهم محاورة أعجب بها هي محاورة فايدروس

والتي يوظفها بشكل كبير في كتاب الكلي واللانهائي " Totalité et infini " ففي هذه المحاورة نجد أفلاطون يتحدث عن الروح التي تتلذذ بالحقائق التي تخص مملكة الروح والإلهي[20]. هذه الأفكار نجدها حاضرة بشكل واضح في العلاقات الإيتيقية مع الغير عند ليفيناس، أين يجعل من الوجه علاقة مع اللانهائي و مع المتعالي.

أما تأثره بالفلاسفة الغربيين فيتجلى على وجه التحديد في هنري برغسون، ادموند هوسرل، مارتن هيدغر و كانط ، إذ يظهر إعجابه بأفكار هنري برغسون من خلال مفهوم الزمن، فالزمانية عند برغسون ليست مختزلة في المكان، حيث وضح الحقيقة الخالصة غير المختزلة للزمان وهو من علمنا روح التجديد، كذلك ميز بين الوجود المعفى من الظاهرة بالوجود المغاير من خلال تبيين زمنية التفاعل الإنساني، وتركت فلسفة هوسرل الجوانية وقعا ملحوظا بالنسبة إلى ليفيناس خاصة تأثره بنظرية الديمومة[21]. والديمومة هي التي تصنع وجود الإنسان وقوته الداخلية هي التي تتحكم في ردود أفعاله و هو عين ما يراه ليفيناس حيث يعتقد ان تعاملنا مع الآخرين قائم على ما يكمن داخلنا لا على ما يسلكه الآخرين اتجاهنا. فقوتنا الحيوية هي التي يجب أن توجهنا وليس العكس وهو ما يسميه برغسون " النازع الحيوي "[22].

إن حركة الوعي داخل النفس حركة ذاتية متصلة والدافع الحيوي يعني وجود اشخاص لديهم دافع قوي، وهذا الدافع يؤدي إلى التميز والإبداع والتطور إذ أن قوتنا تزداد إذا ارتبط طموحنا بغيرنا.

وتأثر ليفيناس بفلسفة ادموند هوسرل و يعتبر ليفيناس مجدد وباعث لفلسفة هوسرل، إذ قرأ كتاب الأبحاث المنطقية لهوسرل، الذي فتح له أفق جديد وتابع دروسه الفلسفية في فرايبورغ في المانيا وكانت فرصة نهل من خلالها مبادئ المنهج الفينومولوجي الذي أسسه هوسرل .و يرجع الفضل إلى ليفيناس في إدخاله المنهج الهوسرلي إلى فرنسا[23]. فمعرفة ليفيناس بفينومينولوجيا هوسرل وفرت الأساس لبحث مفصل بفلسفة هوسرل وفهم القوة الذاتية التي نادى بها هذا الأخير والتي بها نصنع وجودنا"[24].

واهتمام ليفيناس بالفينومينولوجيا الهوسرلية تجسد من خلال كتابه " نظرية الحد في الفينومينولوجيا الهوسرلية " عام 1930، فكان أول عمل بالفرنسية حاول من خلاله ليفيناس أن يقدم توضيح لمصلحة الظواهر، مؤكدا بذلك على نظرية الحدس، أي أن فكر ليفيناس يرجع لجذور عريقة أصيلة تشكل فينومينولوجيا هوسرل قاعدة صلبة لها[25].

وتتجسد قراءة ليفيناس فينومينولوجيا هوسرل على فكرة التعالي وفكرة القصدية **** فالمنحى الذي يتوخاه فكر ليفيناس قائم على محاكمة الأنساق الفلسفية المتعاقبة باسم إنشدادها لفكر التعالي أو غربتها عنها[26].

فهدف هوسرل هو اعتبار الفينومينولوجيا منهج ابستيمي وصفي لفهم ذواتنا وفهم الظواهر الانسانية، كي تأخذ معنى جوهري قصدي

ومن خلال الفينومينولوجيا يتبين لنا أن الوعي مرتبط بموضوع تجربته[27].

ومعنى هذا أنا القصدية لها علاقة بالموضوع، والوعي يتجه نحو موضوعه الذي يقصده، وتصبح العلاقة بين القصدية والتعالي ضرورية الى حد بعيد.

لكن سرعان ما نجد ليفيناس ينتقد أستاذه هوسرل في منهجه الفينومينولوجي ، ولكنه نقد المجدد، إذ يعتقد انه وضع كل شيء في علاقة نسبية مع الأنا المتعالية[28]. كما استبعد في قراءته لهوسرل الطابع النظري والمجرد الذي يختص به التعالي، والملتصق أشد ما يكون الالتصاق بالذاتية المتعالية التي لا تثبت ذاتها إلا ادعاء للموضوعية في التعاطي مع الأشياء، ولذلك يكون الإنجاز الأساسي الذي قامت به الفينومينولوجيا هو اكتشاف القصدية، و بين ليفيناس أن العيب الظاهر للفينومينولوجيا متمثل في جعل الذاتية المتعالية هي المرجع الذي يستخرج منه المعنى، فليس ثمة من أفق يتدفق منه المعنى غير الذاتية المتعالية[29].

لقد انطلق ليفيناس من منهج هوسرل بتطبيقه لمبدأ تحليل الحدس على مجال يتعلق بمعرفة الغير، وهذا ما أهمله أستاذه هوسرل، كما يظهر انقلابه على أستاذه في قلبه لمذهب المحايثة الهوسرلي جاعلا من المغايرة بديلا أساسيا للموجود و للعلاقة بين الذوات [30].

إن مهمة الفينومينولوجيا عند هوسرل تتمثل في علاقة الذات بالموضوع على نحو قصدي اختزالي متعلق بالمعرفة إلا أن المهمة الجديدة للفينومينولوجيا حسب ليفيناس هي أن توجه للإيتيقا و للحياة ككل للاهتمام بالغير بهدف إنساني فالتعالي الذي يقصده ليفيناس يصون العلاقة الإتيقية هو التعالي المطلق للآخر (اللانهائي حسب مفهوم ليفيناس) ولا يقصد بالتعالي التسلط على الأنا أو انهاء وجودها ، وإنما ما يجعله غير قابل للاختزال أو التمثل كموضوع، وهو مبدأ لعملية للقاء بالغير، وهذه العلاقة بين الأنا والآخر تتجسد على مستوى أخلاقي.

أي أن ليفيناس يريد أن ينقل المنهج الفينومينولوجي من مجال العلم إلى مجال الأخلاق بهدف تحرير الإنسان من الأنانية و إحداث وحدة بين الأنا و الآخر.

يعتبر مارتن هيدغر من الفلاسفة المؤثرين أيضا على فكر ايمانويل ليفيناس خاصة من خلال كتابه "الوجود والزمان "، حيث يعتبر ليفيناس أن فلسفة هيدغر في أواخر العشرينات وبداية الثلاثينات من القرن الماضي كانت صدمة بالنسبة له، وهذا لتفسيرها وتحويلها لكيان الفلسفة الغربية بصفة عامة [31].

إذ بين في كتابه الأخلاق واللانهائي أنه في الوقت الذي افترض هوسرل برنامج متعالي للفلسفة، يحدد هيدغر بشكل واضح الفلسفة بالمقارنة مع طرف المعرفة مثل الانطولوجيا الأساسية [32].

معتبرا إياه قد نفخ في الحياة منهجا فينومينولوجيا وأسلوبا عصريا، جعل منها خاصية وقوة تدهش الفكر.

ما يمكن قوله أن ليفيناس يعتقد بعدم إمكانية دراسة أو ممارسة التفلسف كتفكير دون اللجوء إلى فلسفة هيدغر، وهنا يبرز الأثر الكبير لفلسفة هيدغر على ليفيناس، فالنسبة إلى تصور هيدغر للوجود في مجموعة، بمعنى أن السؤال الذي كان يشغله ليس وجود الإنسان بل الوجود كما هو في مجموعته، لكن هذا الأخير لا يفهم ولن يظهر إن لم يكن هناك تحليل ظواهري للوجود [33] ، وهذا ما يتجلى من خلال كتابه الشهير " الوجود والزمن " .

إن اعتبار الانطولوجيا كفلسفة أساسية لفهم فعل الوجود، هو هدف هايدغر من كتابه " الوجود والزمن "، وهو دراسة الوجود برمته دون الاقتصار على الوجود الإنساني، أي أنه يعتبر الانطولوجيا الأساس الرئيسي للفلسفة.

كما نجد أن الفضل يعود لليفيناس في التعريف بأنطولوجيا هيدغر وتفعيلها في المجال الأخلاقي من خلال إعجابه بمؤلف هيدغر " الكينونة والزمان " معرفا الجمهور الفرنسي بالفلسفة الانطولوجية الهيدغرية إلا أنه سرعان ما انتقده في مسألة تقديم الوجود على الموجود ورد الاعتبار للموجود[34].

ويتجلى نقد ليفيناس لهيدغر في كون هيدغر أعطى الأولوية لمشكلة الوجود على مشكلة الإنسان، أي انتقد وجهة النظر المسيطرة على التقليد الفلسفي الغربي خاصة في المذهب الوجودي[35]. حيث نجد أن تصور ليفيناس ينطلق من تصحيحه لمنطلق الوجود لدى هيدغر، و هذا ما يظهر في قوله "إن الموجود أعلى مكانة من الوجود" [36]. وبالتالي ففلسفة ليفيناس هي فلسفة الوجود الأخلاقي وليس وجود الأنا كما يدعي هيدغر.

ونشر ليفيناس مقالا بعنوان " مارتن هيدغر والانطولوجيا "، وكان بمثابة المقال الأولى حول هيدغر ويتفق ليفيناس مع هيدغر في فكرة فهم الكينونة التي تبنى على الاختلاف والتمايز الأنطولوجي، و اصدر ليفيناس سنة 1947م كتابان الأول بعنوان من" الوجود إلى الموجود" والثاني " الزمان و الآخر" مؤسسا بذلك قطيعة مع هيدغر، ويتمثل ذلك في انتقال ليفيناس من البعد الانطولوجي إلى البعد الإتيقي الإنساني والواقعي ويظهر ذلك التباين أن الدزاين او الوجود الهيدغري هو بمثابة لقاء مع الموت الذي يمثل محور الوجود حيث يقول " إن الموت هو بما هو نهاية الدزاين في صلب كينونة هذا الكائن نحو نهايته "[37]. وهذا ما لا يقبله ليفيناس، لأن ليفيناس يربط الدزاين أو الوجود باللقاء مع الآخر والموت الحقيقي هو موت الآخر في ساحتنا الشعورية.

أما تأثر ليفيناس بكانط فلن نتحدث عنه في هذا الجزء لأنه سيأتي لاحقا و بالتفصيل.

الهوامش :

*- جاكلين روس و تكتب أيضا في بعض المقالات و الأبحاث جاكلين روز، وهي فيلسوفة فرنسية معاصرة مختصة في الفلسفة و العلوم الانسانية وُلدت " Jacqueline Russ" في 30 نوفمبر من سنة 1934 و توفيت في 07 سبتمبر من سنة 1999، مهتمة بالفكر الأخلاقي و تعليمية الفلسفة ، ولها العديد من المؤلفات منها مغامرة الفكر الاوربي و الفكر الاخلاقي المعاصر . و هي مجددة للفكر الاخلاقي الكانطي. مهتمة بالمناهج و الفكر الأخلاقي و نميز هنا أيضا جاكلين روز" J.Rose " البريطانية التي ولدت سنة 1949 لعائلة يهودية غير ملتزمة. كانت شقيقتها الكبرى الفيلسوفة جيليان روز. اشتهرت جاكلين روز بأعمالها التي تدور حول العلاقة بين التحليل النفسي، الأنثوية والأدب. تخرجت روز من كلية سانت هيلدا، أكسفورد، وحصلت على الماجستير من السوربون، باريس، و الدكتوراه من جامعة لندن. كما اشتهرت بروايتها روايتها ألبرتين، والتي نشرت في 2001، تدور حول التباين الأنثوي في فبحث الوقت الضائع لمارسيل بوست اشتهرت لدراستها النقدية حول حياة وعمل الشاعرة الأمريكية سيلفا بلاث ، و اشتهرت بكتابها القضية الصهيونية، كما اشتهرت برفضها للسياسة الصهيونية و سياسة الإسرائيليين العدوانية اتجاه الفلسطينيين، و هو ما سنبينه في نهاية هذا الكتاب .

1-جان فرانسوا دفريتي، فلسفات عصرنا، تياراتها ومذاهبها، ترجمة : إبراهيم صحراوي، ط1، دار العربية للعلوم، بيروت، لبنان، 2009، ص.269

2-جاري جيتينج، ليفيناس : الكلي والآخر، ترجمة : يدر مصطفى، مجلة أوراق فلسفة، علمية محكمة، العدد 13، القاهرة، مصر، 2004، ص383.

3- روجيه بول داروا، أساطين الفكر، عشرون فيلسوفا صنعوا القرن العشرين، ترجمة : على نحبيب إبراهيم، (د-ط)، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 2012، ص238.

4- Emmanuel Levinas ethics and infinity, conversations with Philippe Nemo, Translated by Richard A. Cohen, Duquesne Uniersity Press, Pittsburgh, USA, 1985, p113.

5 -جون ليشته، خمسون مفكرا أساسيا معاصرا، من البنيوية إلى ما بعد الحداثة، ترجمة : فاتن البستاني، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان، بيروت، 2008، ص241.

6- رحيم عمر، فينومينولوجيا الوجه والايروس عند إيمانويل ليفيناس، رسالة ماجستير، جامعة تلمسان الجزائر، 2016، ص.15

7-Emmanuel Levinas, De l'oblitération : Entretien avec Françoise Armengaud à propos de l'œuvre de Sosno, édition de la différence, 2 éme édition, Paris, France, 1990, p26

8-جان فرانسو دوري ، فلسفات عصرنا-تياراتها-مذاهبها، ص269.

**- التوراة : تعني حرفيا "تعليم"، أو تدريس، وهي الوحي الذي نزل على بني إسرائيل بوساطة موسى في جبل سيناء وهي كلمة عبرانية تعني الشريعة أو الناموس، ويراد بها في اصطلاح اليهود: خمسة أسفار يعتقدون أن موسى عليه السلام كتبها بيده، ويسمونها "بنتاتوك" نسبة إلى (بنتا) وهي كلمة يونانية تعني خمسة، أي: الأسفار الخمسة، وهذه الأسفار هي:

سفر التكوين، سفر الخروج، سفر اللاويين، سفر العدد، سفر التثنية / مجمع اللغة العربية ، المعجم الوسيط، ط5، مكتبة الشروق الدولية، مصر، 2011، ص89.

التلمود : هو مجموعة التعاليم، والتقاليد اليهودية المنقولة شفاهيا عن رجال الدين / مجمع اللغة العربية ، المعجم الوسيط، ط5، مكتبة الشروق الدولية، مصر، 2011، ص8.

9- سواريت بن عمر، الحوار بين الذات والآخر في فلسفة ليفيناس، مجلة أوراق فلسفية، العدد 13، القاهرة، مصر، 2004، ص408.

10- جاكلين روس، الفكر الأخلاقي المعاصر، ترجمة عادل العوا، ط1، دار عويدات للنشر والطباعة، بيروت، لبنان ، 2001، ص.66

11- زهير الخويلدي، الأنا وجه لوجه مع الأخر، على الموقع http://alhiwar-today.net/

12- سواريت بن عمر، الحوار بين الذات والآخر في فلسفة ليفيناس ، ص377.

13- احمد إيبش، التلمود، كتاب اليهود المقدس، تاريخه، تعاليمه، ومقتطفات من نصوصه، تقديم سهيل زكار، دار قتيبة، دمشق، 2006، ص368.

14- فضيلة سنوسي، الأخلاق التطبيقية عند إيمانويل ليفيناس، مجلة متون، العدد 9-10،، جامعة سعيدة، الجزائر، ص279.

15- أحمد عبد الحليم عطية، الفكر الأخلاقي الجديد، ودراسات أخرى، (د،ط)، دار الثقافة العربية، القاهرة، مصر، 2006، ص200.

16-الموسينيور شوشاني ، شخصية متعددة اللغات كان قريب فتنه بروحه المألوفة ومعرفته المنتشرة حيث بأن الإجتهاد أم كل المعارف توفي 1968م ولقب بالمعلم اليهودي http://for-u-and-meown.com

17 -Emmanuel Levinas, Quatre lectures talmudiques, Edition minuit, Paris, France, 1968, p13.

18- بلعز نور الدين، المسؤولية والتعالي في فلسفة ليفيناس، مجلة النقد الثقافي، دار كنوز للنشر والتوزيع، العدد 2، تلمسان، الجزائر، 2004، ص122.

19- سنوسي فضيلة، الأخلاق التطبيقية عند ايمانويل ليفيناس، ص.285

20 -Emmanuel Levinas, totalité et infini, essai sur l'extériorité, martinus nijhoff, France, 1971, p117.

21- جون ليشته، خمسون مفكرا أساسيا معاصرا، ص242.

22- برغسون هنري، الأعمال الفلسفية الكاملة، ترجمة سامي الدروبي، (د،ط)، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، 2007، ص.05

23- بلعز نور الدين، المسؤولية والتعالي، ص119.

24 - جون ليشته، خمسون مفكرا أساسيا معاصرا، ص243.

25 -عمر بدري، ليفيناس والتيار الفينومينولوجي، مجلة دراسات فلسفية، الجمعية الجزائرية للدراسات الفلسفية، العدد 03، نوفمبر 2014، ص61.

**** القصدية: القصدية مدرسة نفسية تعتقد أن الإدراك لا يتم إلا بالعاطفة و الرغبة ، فالعواطف توجه عقلنا و حواسنا و ذواتنا نحو موضوع معينّ ، وتساعدنا على إدراكه ، فالحب والبغض وسيلتان من وسائل المعرفة ، والعقل في نظر المدرسة القصدية آلة في يد العاطفة تفعل به ما تشاء ، فهي التي تبعث نشاطه اتجاه موضوع ما وتثبّط حركته اتجاه موضوع آخر. و القصدية توجه الشعور نحو موضوع قد لا يكون واقعيا ، لكن هذا الموضوع لابد وأن يكون كتصّور باطني داخلي نعمل على تحقيقه واقعيا .(جميل صليبا : المعجم الفلسفي ،ج2، مادة القصد ، ص 194)

26 -عمر بدري، ليفيناس والتيار الفينومينولوجي ، ص62.

27-ريطو طوكسانو، مدخل إلى فلسفة ليفيناس ترجمة إدريس كثيرو عز الدين الخطابي، منشورات الاختلاف، العدد18، 2003، ص09.

28 - المرجع نفسه، ص03.

29- عمر بدري ، ليفيناس والتيار الفينومينولوجي، ص62.

30- المرجع نفسه، ص.62

31- ريطو طوكسانو ، مدخل إلى فلسفة ليفيناس ترجمة إدريس كثيرو عز الدين الخطابي، ص.03

32 -Emmanuel Levinas, totalité et infini, p28.

33- إبراهيم أحمد، إشكالية الوجود والتقنية عند مارتن هايدغر، ط1، الدار العربية للعلوم، منشورات الاختلاف ، بيروت ، لبنان،2006، ص37.

34- بلعز نورالدين، المسؤولية والتعالي، ص.121

35- جويل هنسل، ليفيناس من الموجود إلى الغير، ترجمة علي بوملحم، ط1، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 2008، ص10.

36 - جال لاكروا، اللامتناهي والجاري في فسلفة ليفيناس، ص363 ، 463.

37- مارتن هايدغر، الكينونة والزمان، ترجمة فتحي المسكيني، ط1، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت، لبنان، سبتمبر 2012 ص463.

" ومن بين الأمور التي يمكن حصرها في هذا العالم أو خارجه، لا يوجد شيء يمكن عده خيرا على وجه الإطلاق ودون قيد، اللهم إلا شيء واحد هو الإرادة الخيرة "

إيمانويل كانط

ثانيا / تطورمفهوم المسؤولية في الفلسفة

إن موضوع المسؤولية يرتبط أشد الارتباط بجوهر الإنسان، فكما نقول في مجال الفلسفة أن الإنسان حيوان عاقل نقول أيضا إنه كائن مسؤول، ذلك أن الإنسان يعرف أكثر بخاصية المسؤولية أكثر منه بخاصية الحرية، فهي تنصب على الإنسان أولا بدون التساؤل عن شروطها، لأن الشخص يعتبر العلة الأولى في القضية، وقد مر مفهوم المسؤولية تاريخيا بمراحل وأطوار مختلفة، واتخذ دلالات متنوعة شملت ميادين ومجالات متنوعة منها علم الاجتماع والسياسة والقانون والفلسفة. ففي المجتمعات البدائية كان الفعل الضار يتبع برد فعل مماثل له. فكان من حق المتضرر أن يثأر لنفسه على أساس فكرة الأخذ بالانتقام الشخصي، وتطور الشرائع القديمة فنظمت القصاص وأجازت للمتضرر أن يحدث بمن أضره مثل الأذى الذي أصابه وألزمته أن يراعي هذا الحد وألا يتجاوزه (السن بالسن والعين بالعين) ، وذلك أن الإنسان في هذه المرحلة وجد في قانون مقابلة المثل بالمثل في القصاص روح العدل والإنصاف، ومنه في لغة ميزان المثل بالمثل، كانوا يقابلون العنف بالعنف والعين بالعين. ومفاد هذا القانون أنه من يتعدى عليك، فلابد من الرد عليه بمثل ما تعدى به عليك بغرض الدفاع عن النفس، ووجد فيه الإنسان الوسيلة المناسبة لمحاربة الانتقام الشخصي والجمعي.

وبهذا ظهرت فكرة المسؤولية، وقد كانت البداية مع "ماكس فيبر عندما قسم لنا الأخلاق إلى قسمين أو نمطين: الأول موسوم بالأخلاق

التأملية العقائدية أساسها الدين كإيديولوجيا والثاني: وهو الأهم، يتمثل في أخلاق المسؤولية التي تكون مصدرها الذات الفردية وتتأسس على الوعي الحر فالفرد مسؤول عن كل نتائج أفعاله ، لأن هذه الأفعال لا ترجع إلى قوى خارجة عنه وفي هذا يقول ماكس فيبر " كل نشاط موجه وفقا للأخلاق يمكن أن يخضع لقاعدتين من السلوك مختلفتين تماما ومتعارضتين بصورة قوية يمكن أن يتوجه وفق أخلاق المسؤولية أو حسب أخلاق الاعتقاد"[1].

ثم اتخذت المسؤولية مفهوما جديدا في العقود الأربعة الماضية مع العديد من المفكرين، ولا يمكن فهم أخلاق المسؤولية عند ليفيناس الا بعد فهم حقيقة المسؤولية و تطوها في الفلسفة المعاصرة، وهو ما سنبينه في هذا الجزء.

1- مفهوم المسؤولية

يعرف لنا جميل صليبا في معجمه الفلسفي المسؤولية بأن المسؤول من الرجال هو المنوط به عمل تقع عليه تبعيته ويشترط في المسؤولية الحقيقية أن يكون هناك قانون يأمر بالفعل، أو بالترك وأن تكون مخالفة المرء لما يأمر به القانون صادرة عن إرادته[2]. وتعني المسؤولية في اللغة العربية : كل ما هو واجب على الإنسان فعله، وبذلك فهي تأخذ معنى الإلزام[3].

وأما من الناحية الاصطلاحية فالمسؤولية هي إقرار المرء بما يصدر عنه من أفعال وباستعداده لتحمل نتائجها وما يصدر عنه من أفعال.

كما أن المسؤولية هي الجزاء بمعنى ما يستحقه الإنسان من ثواب أو عقاب.[4]

من خلال التعاريف السابقة الخاصة بمفهوم المسؤولية نجد أنها مقترنة بثلاثة عناصر أساسية وهي: الإلزام والالتزام والجزاء، فإذا انتفى الالتزام انتفت معه المسؤولية ولو انعدمت المسؤولية فلن يكون ثمة جزاء و هكذا.

ويعرف لنا "ب. فوليكي" المسؤولية بقوله " هي ضمان السيرة الحسنة وتحمل نتائج الأفعال خصوصا ما ترتب من آثار سيئة"[5] . أي هي قدرة الفرد على المحافظة على سيرته الأخلاقية والقيمية الحسنة التي لا تسبب الحذر لغيره، كما أنها تعني وجوب تحمل الفرد لتبعات أفعاله مهما كانت هذه الأفعال خاصة منها الأفعال السيئة التي تضر الإنسان والوجود عامة. ومنه يقسم فوليكي هذه المسؤولية إلى قسمين:

أ- المسؤولية الفردية

والتي تعني ضرورة تحمل الفرد لنتائج أفعاله الصادرة عنه دون وساطة شخص آخر أو تدخل شيء مستقل عنه، كذلك تحمل مسؤولية الآخر أو الغير، وتكون عندما يأخذ شخص رعاية أو حماية شخص آخر في إطار معين، ومن ثم يتحمل النتائج الإيجابية والسلبية التي تترتب عن

ذلك مثل: مسؤولية الآباء عن تربية أبنائهم وتنقسم المسؤولية عموما إلى أنواع عدة فمنها المسؤولية القانونية (المدنية والجنائية) والاجتماعية والأخلاقية[6] . وهذا ما سنتطرق إليه من خلال معالجتنا لمجموعة من العناصر المتعلقة بهذه الأنواع.

ب-المسؤولية الاجتماعية

المسؤولية الاجتماعية هي التزام المرء بقوانين المجتمع ونظمه وتقاليده، إنها المسؤولية التي يكون فيها الشخص مدانا أمام الرأي العام للقرية أو العائلة أو المجتمع في حالة انحرافه عن تقاليد مألوفة.

وقد أثبت التصور الاجتماعي بأن المسؤولية لا تتمركز حول الفرد بل كانت في الأصل جماعية لأنها ترجمة وانعكاس للعادات والمعايير الاجتماعية والأعراف والتقاليد، فقد كان ينظر إلى الخطأ الذي يرتكبه الفرد على أنه عار و دنس ينطبق على جميع أفراد الأسرة و القبيلة، الأصدقاء، إنها حالة تعبر عن غضب واشمئزاز الوضع الجماعي الناقم على الجماعة المذنبة.

المسؤولية الاجتماعية تكون عندما يسأل الإنسان عن أفعاله أمام الرأي العام، أي المجتمع والمحاكم إنها تختصر في إصلاح الأضرار المتسببة للآخر وفي هذا يقول فوليكي " فنحن مسؤولون عن أفعالنا أمام المحكمة وأمام سلطة اجتماعية، إنها مسؤولية تجعلنا نستحق العقاب عندما تخالف أفعالنا القواعد "[7].

فعندما تتعدى نتائج أفعالنا إلى الآخر مخترقا العرف أو القانون حينها تترجم المسؤولية الاجتماعية موضوعيا حسب القانون أو العرف.

المسؤولية الاجتماعية باختصار هي التزام المرء بقوانين ومبادئ والمجتمع ونظمه وأعرافه وتقاليده.

وعليه فالواقعة الاجتماعية واقعة متعالية تتجاوز الضمائر الفردية، فما تفكر به الجماعة، وتحس به وتريده أن يتغلب على ما يفكر فيه الفرد ويحس به ويريده، ومنه كان المجتمع يؤثر على الأفراد الذين يكونونه تأثيرا ملحوظا.

إن المجتمع هو صاحب الدور الأساسي في تكوين حياة الأفراد الذهنية وهو مصدر الواجب والقيم. فالمجتمع حسب ما يتصوره دوركايم هو الذي يفرضها لأنه الواقع الذي يفسر لنا القيم التي نتمسك بها ونخضع لها ذلك أن الأخلاق تبدأ حيث يبدأ التعلق بجماعة ما . فالمجتمع هو الذي ينتجها ويفرضها علينا فهو الذي يتكلم فينا حين يتكلم الضمير.

كما أكد دوركايم إلى أن الحضارة هي عمل اجتماعي في أساسه.

وهي أمر يرجع في حقيقة الأمر إلى اتحاد الناس وارتباطهم فيما بينهم وبين الأجيال المتعاقبة منهم. وباختصار فالمسؤولية الاجتماعية هي التزام المرء بالقواعد الأساسية التي تنظم المجتمع الذي يعيش فيه ذلك بأن لا يخالف المرء ما جاء به المجتمع من أعراف وقيم وتقاليد، لأن المسؤولية تقع على الفرد في نظر الجماعة إذا خرج عنها وعن الضمير الجمعي.

ج-المسؤولية القانونية

المسؤولية القانونية هي المسؤولية التي يترتب عليها جزاء قانوني جراء مخالفة واجب من الواجبات الاجتماعية، فهي تنهض عند إخلال الإنسان بقاعدة قانونية يحددها القانون، مما يستوجب جزاء قانونيا يختلف باختلاف القاعدة القانونية التي خولفت [8].

كما أن المسؤولية القانونية تقوم أمام شخص آخر هو المتضرر فهي وحدها التي يترتب عليها جزاء قانوني يتمثل في العقوبة أو التعويض [9].

والمسؤولية القانونية تتصل بعلاقة الإنسان مع غيره من الناس، وهي لا تتحقق إلا إذا الحق الضرر بالغير.

كما أن الجزاء في المسؤولية القانونية يحدده القانون، وتنقسم المسؤولية القانونية إلى:

- مسؤولية إدارية

وتترتب عند مخالفة الموظف العام لقاعدة من قواعد القانون الإداري والجزاء يتمثل في مثل هذه الحالة في عقوبة تأديبية توقع على المخالف [10].

- مسؤولية مدنية

هي التزام الشخص بتعويض الضرر الذي سببه لشخص آخر والجزاء فيها يكون بتعويض الضرر الذي ترتب على إخلاله بالتزام يقع عليه ويعرفها جميل صليبا بقوله " إنها المسؤولية التي توجب على الفاعل الذي سبب لغيره ضررا أن يعوضه منه سواء كان سبب الضرر بإرادته أو بإهماله أو تهوره" [11].

إنها تختصر في إصلاح الأضرار المتسببة للآخر ويكون الشخص مسؤولا مدنيا عندما يجبره القانون على إصلاح الضرر الذي ألحقه بالغير. مثال ذلك مسؤولية المربي أو مدير التعليم عن سلامة تلاميذه فإذا أصاب التلميذ ضررا أثناء وجوده بالمدرسة أو أثناء رحلة نظمتها المدرسة فإن هذه الأخيرة تسأل عما أصابه من أضرار أثناء وجوده في عهدتها وتحت مسؤوليتها على أساس الالتزام بضمان سلامة التلميذ.

نستنتج أن موضوع المسؤولية المدنية هو المطالبة بالتعويض عن الضرر، ومن ثم فالجزاء هو إلزام المسؤول بتعويض الشخص المتضرر الذي له وحده حق المطالبة بالتعويض، كما يجوز له الصلح أو التنازل عن دعواه قبل المسؤول[12]. فالمسؤولية المدنية ترتكز على القاعدة العامة المقررة في القانون المدني والتي تقتضي بأن كل خطأ سبب ضررا للغير يلزم من ارتكبه بالتعويض. فهي لا تقوم إلا إذا أصيب شخص معين بضرر، ومنه نلمس أن مهمتها الأساسية هي الالتزام بتعويض الضرر، إنها ترتبط بالضرر وجوبا وعدما، ذلك أن التعويض يتحدد على أساس الضرر والقاضي هو الذي يقدره.

- مسؤولية جنائية أو جزائية

هي تلك المسؤولية التي تقع على شخص ارتكب مخالفة أو جنحا أو جريمة، وهي ذات علاقة وثيقة بالمسؤولية الأخلاقية [13]. حيث يتحمل الجاني مباشرة ما يترتب عن جنايته من عقوبات، إنها الفعل الذي بمقتضاه يجب على الشخص أن يسأل عن مخالفته ويستحق مقابل ذلك عقوبة منصوص عليها، أي أن المسؤول جنائيا هو الذي يمكنه أن يكون قانونيا مرتكبا لجريمة أو جنح سواء أمام محكمة الجنح أو محكمة الجنايات.

فهي تنشأ عند حدوث ضرر يصيب المجتمع، والجزاء يتجسد في عقوبة جنائية توقع على الجاني أي أن الجزاء فيها يكون على فعل موجه ضد المجتمع بخلاف المسؤولية المدنية التي يكون فيها الجزاء على الفعل الضار الذي يصيب الفرد، والجزاء في المسؤولية الجنائية هو العقوبة التي وضحها قانون العقوبات والتي تطالب بها النيابة العامة باعتبارها ممثلة المجتمع [14]. وعليه فهي تختلف عن المسؤولية المدنية التي يحق فيها الصلح أو التنازل عن دعواه قبل المسؤول أما المسؤولية الجنائية لا يجوز فيها الصلح ولا التنازل في الجريمة لأن الحق في العقوبة عام و ملك للمجتمع [15].

ويلاحظ أن الفعل الواحد قد تترتب عليه المسؤولية الجنائية والمدنية في نفس الوقت كالجرائم التي تصيب الجسم والنفس كالقتل

والضرب، كما هناك أفعال تترتب عليها المسؤولية الجنائية دون المدنية وهي تلك الأفعال التي تمس المجتمع دون أن تضر شخصا من الأشخاص كجرائم الشروع والتشرد وغيرها.

وتعترف أحكام القانون الدولي الإنساني اليوم بالمسؤولية الجنائية الدولية الفردية للشخص الذي ارتكب أو أمر بارتكاب أي مخالفات، وعادة ما توصف هذه المخالفات المؤدية لتلك المسؤولية "بجرائم الحرب" التي تشمل القتل العمد والتعذيب والمعاملة اللا إنسانية، ويظهر أن الفرد يتحمل تلك المسؤولية وفقا للقاعدة التي تعترف بها كافة النظم القانونية الداخلية والدولية القائلة أنه لا عذر لأحد في جهل القانون [16].

بناء على ما سبق نلمس أن المسؤولية القانونية تظهر عند إخلال الإنسان بقاعدة قانونية ويختلف باختلاف القاعدة القانونية التي خولفت، ورغم تنوع أنواعها وأقسامها إلا أنها تبقى وليدة القانون فقد اعتبرت المسؤولية المدنية بنوعيها التي تقوم على أساس وركن واحد هو الخطأ أساسا موجبا لتعويض الضحايا وكسند للإصلاح ومن ثم كان الخطأ مصدرا للقانون وأساسا للمسؤولية.

وتجدر الإشارة إلى أن المسؤولية قضية عرفت في إطارها القانوني العام، إلا أنها قضية ذات صلة وثيقة بالجانب الخلقي الفلسفي الذي لا يمكن إغفاله، وهذا ما يدفعنا إلى التساؤل عن معنى المسؤولية الأخلاقية؟ وهل المسؤولية القانونية كافية لضمان حياة هنيئة ومستقرة

للبشر والمجتمع بصفة عامة، أم يحتاج المجتمع إلى وجود مسؤولية من طابع آخر هي المسؤولية الأخلاقية؟ وهل المسؤولية الأخلاقية قادرة على حل جل مشكلات الإنسان الراهنة وسد الفجوات الموجودة في النظام القانوني للمجتمع الراقي؟

هذا ما سنتعرف إليه في ما تبقى من كتابنا هذا . ذلك أن من أهم أسباب المشاكل والفتن والشرور في المجتمع مرده إلى إهمال المسؤولية الأخلاقية داخل المجتمع وتقديسهم للمسؤولية الاجتماعية والقانونية لأن لب الحياة البشرية كلها هي المسؤولية الأخلاقية.

د-المسؤولية الأخلاقية أو الأدبية

المسؤولية الأخلاقية هي المسؤولية الناشئة عن إلزامية القانون الأخلاقي وعن كون الفاعل ذا إرادة حرة [17] . ومعنى ذلك أن الفاعل الذي تكون أفعاله ضرورية أي ناشئة عن أسباب طبيعية أو مسيرة بإرادة غيره لا يعد مسؤولا من الناحية الأخلاقية، ولهذا فإن المسؤولية درجات متفاوتة " أعلاها مسؤولية الفاعل الواعي الذي تصدر الأفعال عن إرادته بحرية تامة، وأدناها مسؤولية الفاعل الذي يسيطر الهوى على قلبه ويعمي بصيرته، ويمنعه من رؤية الحق " [18].

إنها شعور الشخص الداخلي بأن ما صدر عنه من أفعال هي أفعاله وأنه يتحمل عواقبها أمام محكمة ضميره، و عليه فهي مسؤولية أساسها النية وليست وليدة القانون.

وتقوم المسؤولية الأدبية أو الخلقية عند إخلال الإنسان بقاعدة خلقية وهي تستوجب جزاء أدبيا بعيدا عن دائرة القانون ومن هنا فإن نطاق المسؤولية الأدبية تحدده الأخلاق التي ترسم للشخص السلوك الذي يجب أن يتخذه نحو غيره من الناس [19].

ومنه كان نطاق المسؤولية الأخلاقية (الأدبية) أوسع من نطاق المسؤولية الاجتماعية والقانونية، إنها حالة تمنح الفرد القدرة على تحمل تبعات أعماله وآثارها ومصدرها الضمير ، ومن ثم كان أصل المسؤولية ليس القانون بل مبدأ أخلاقي فلا يسن قانون ولا يراد له أن يطبق دون إحساس ضميري بمبدأ المسؤولية كحافز ذاتي لدى الفرد.

إنها المسؤولية التي تترتب عن مخالفة قواعد الأخلاق فيسأل أمام الله وأمام ضميره، ولا يترتب عليها أي جزاء قانوني، كما لا يشترط لقيام هذه المسؤولية حدوث ضرر للغير بل يكفيه أن ينوي الإنسان ويتمنى شرا لغيره حتى تتحقق هذه المسؤولية.

والمسؤولية الأخلاقية مسؤولية عامة شاملة تشمل كافة نواحي الحياة وهي مسؤولية نابعة من ضمير الإنسان، ذلك أن الفعل الأخلاقي لا يستمد إلا من كياننا الداخلي. لهذا لا يكون هذا الفعل حدا إلا إذا اشتق من الإرادة الداخلية للإنسان " ومن بين الأمور التي يمكن حصرها في هذا العالم أو خارجه لا يوجد شيء يمكن عده خيرا على وجه الإطلاق ودون قيد اللهم إلا شيء واحد هو الإرادة الخيرة " [20].

بهذه الحملة بدأ "كانط" القسم الأول من كتابه (تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق) وهو يقصد منها أن الإرادة الخيرة هي وحدها التي يمكن أن تعد خيرا في ذاته أو خيرا مطلقا غير مشروط فهي تستمد خيريتها من صميم نيتها، ومنه كانت النية العنصر الجوهري للأخلاق، فالشعور بالالتزام يصدر عن إرادة حرة هي التي تدين نفسها بنفسها، وهي التي تقرر لنفسها بنفسها أداء الواجب.

لذا فإن القانون الأخلاقي لا يعبر عن شيء كما وضح "كانط" سوى عن الاستقلال الذاتي للعقل العملي أي الحرية التي هي شرط ضروري لتحقق القانون الأخلاقي وفي هذا يقول كانط " لا يعبر القانون الأخلاقي إذن عن شيء آخر إلا على استقلالية العقل العملي الخالص أي الحرية"[21]. فحيث تنعدم الحرية تنعدم العلاقة الأخلاقية، وهذا ما تعبر عنه طبيعة الإرادة ومنه كان القانون الأخلاقي منبثق من الإرادة نفسها وليس شيئا مفروضا على الإرادة من خارجها.

إن فكرة "كانط" حول مفهوم الاستقلال الذاتي يعني عنده" القدرة والمسؤولية فإن تكون حرا معناه أن تكون شخصا ذا مسؤولية أخلاقية ذلك أن الإرادة الحرة والإرادة الخاضعة للقوانين الأخلاقية شيء واحد بالذات"[22].

فكوننا كائنات عاقلة نحن أحرار، ومنه فنحن الذين نصوغ القانون الأخلاقي بأنفسنا لأنه كامن فينا بداخلنا ولسنا بحاجة للبحث عنه لأنه ينتمي إلى تركيبتنا العاقلة.

فالمسؤولية الأخلاقية حسب كانط لا تخضع لسلطة قانونية أو خارجية قهرية بل إلى سلطة أو قوة الإرادة التي هي كامنة بداخلنا و هي الضمير، ذلك الإحساس العميق بداخلنا الذي ينادي حتى ولو نسينا أو أخطأنا يلوم صاحبه إذا ارتكب خطأ، يعذبنا بداخلنا حتى ولو كان الإنسان شريرا، ولكن لديه علاقة مباشرة بحرية إرادتنا إنه الدستور الذي يقودنا ويحكم بداخلنا.

ومنه كانت المسؤولية ناتجة عن مخالفة القواعد الأخلاقية أي الواجب الأخلاقي، مما يخضع الفرد للمساءلة أمام ضميره متى خالف الفرد أوامر الإرادة الخيرة التي تقوده دوما لأن يكون فاضلا، إنها – المسؤولية الأخلاقية- تقوم متى أخل الإنسان بقاعدة خلقية مما يجعلها تستوجب جزاء أدبيا بعيدا عن دائرة العرف والقانون ومنه كان نطاق المسؤولية الأخلاقية الذي تحدده الأوامر واحترام القانون الأخلاقي ،والتي ترسم للشخص سبيل عيشه إنها وليدة الضمير ومنه كان نطاق المسؤولية الأخلاقية أوسع من نطاق المسؤولية الاجتماعية والقانونية. ذلك أن المسؤولية الاجتماعية هي تلك المسؤولية التي لا تتمركز حول الفرد بل هي انعكاس لصوت وضمير الجماعة لأنها التزام المرء بقوانين المجتمع و نظمه وتقاليده وأعرافه فهي مسؤولية تجعل الفرد مدان أمام

سلطة عامة أي الرأي العام للجماعة أو المجتمع، أما المسؤولية القانونية بنوعيها هي تلك المسؤولية التي تقوم عند إخلال المرء بقاعدة قانونية، يحددها القانون مما يستوجب جزاء قانونيا ومنه كانت وليدة القانون أو تخضع لإرادة التعاقد بين الطرفين المسؤول والمتضرر، ولما كان الخطأ محررا للقانون وأساسا للمسؤولية وركنها الأساسي أصبحنا اليوم نتحدث عن مسؤولية دون خطأ مقصود قانونيا نتيجة تضاعف الأضرار وازديادها بفعل التطور التقنو علمي وسيطرة الآلة على أنشطة الإنسان كل هذا أدى إلى انقلاب المجتمع رأسا على عقب فكل شيء انقلب إلى تهديد ولم يعد الإنسان مستسلما لفكرة القدر، بل أضحى يطالب بإصلاح الأضرار، وهذا ما أدى إلى ظهور أزمة المسؤولية "فالأزمة المعاصرة للمسؤولية هي أزمة القرار وفي الوقت ذاته أزمة القيم وتضاربها "[23]. ثم تليها أزمة القانون ذلك أن المجتمعات المعاصرة مجتمعات كثرت فيها المرافعات القضائية وتضاعفت فيها الدعاوي والإجراءات القضائية مما استوجب أن ترجع المسؤولية الأخلاقية أو الأدبية لتنظم حياة الفرد والمجتمع، لأنها نموذج للتنظيم الاجتماعي وتقنية للجزاء وإصلاح الضرر فالمسؤولية الأخلاقية أو الفلسفية مؤسسة على الوعي بالواجبات.

لكن الواقع اليوم يؤكد أن المسؤولية بقيت مجالا مقتصرة على القانون وبعيدة عن الأخلاق وبالتالي نقص في الانسجام بين العناصر الأخرى مما استوجب أن تكون المسؤولية ذات علاقة بالأبعاد السياسية والاجتماعية والقانونية والأخلاقية، وهذا ما نلمسه مع "بول ريكور" الذي

ميز بين البعد الأخلاقي للإدانة والبعد القانوني للمسؤولية دون أن ينفي العلاقة بين فكرة الإدانة وفكرة المسؤولية لأن ." إدانة شخص ما بفعل هي تحميله إياه كما يحمله فاعله الحقيقي واحتسابه عليه إنجاز القول وجعله مسؤولا عنه"[24]. مما يعني هنا وجود ارتباط بين فكرة الإدانة وفكرة المسؤولية وبين فكرة الفعل وفكرة الفاعل.

وهنا يؤكد "ريكور" على فكرة التعقل التي تكشف حدود المسؤولية الأخلاقية والقانونية وتجعلهما يسيران في طريق واحد ذلك أن فضيلة التعقل هذه هي التي تتجه بالمسؤولية نحو الماضي والحاضر والمستقبل ومنه استطاع "ريكور" أن يقرب بين الإدانة الأخلاقية والمسؤولية القانونية من خلال فكرة التعقل.

لهذا فمحاولة إيجاد حل لأزمة المسؤولية يعتمد على ضرورة الإسناد الفلسفي الذي تم إغفاله والذي ينص على ضرورة الشعور بالوعي بالمسؤولية وكذلك دون تجاهل المسؤولية القانونية القائمة على الجزاء وإصلاح الضرر ومنه كان الضامن الوحيد لقيام المجتمع الصالح على أسس ومبادئ قوية وسليمة هي المسؤولية الأخلاقية أو الفلسفية والتحامها مع المسؤولية القانونية والاجتماعية لضمان تنظيم الفعل الإنساني على أكمل وجه. ومن هنا نجد أنفسنا ملزمين بتجديد القيم وتأسيس أخلاق المسؤولية وهو لب ما ذهب إليه ليفيناس. والمسؤولية الاخلاقية عند كانط تحتاج الى أخلاق وهذه الأخلاق في نظر ليفيناس وتتمثل في المزاوجة بين النية ونتيجة الفعل والتنزيه، بمعنى أنه يجب

تحقيق أثر نافع للآخر حتى نحكم بأننا في دائرة المسؤولية تجاهه، وهي أخلاق الأخلاق، إذ لا يجب أن نكتفي بالنية الحسنة و نتجاوز نتيجة الفعل، ومن هنا يظهر تأثر ليفيناس بالمسؤولية الأخلاقية و الواجب الاخلاقي عند كانط، وأضاف اليه نتيجة الفعل.

الهوامش

1- Max Welber: le savant et le politique, traduction de Julien Freund introduits par Raymond Aron, Libraire plom, Pris, 1959, P172 .

"Toute activité orientée selon l'éthique peut être subordonnée à deux maximes totalement déférents irréductiblement opposées, Elle peut s'orienter selon l'éthique de la responsabilité ou selon l'éthique de la conviction " .

2 - جميل صليبا، المعجم الفلسفي ج2، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، 1982، ص.369

3 - المنجد في اللغة والإعلام، ط3، المكتبة الشرقية، بيروت، 2000، ص .159

4 - نصوص فلسفية، السنة الثالثة ثانوي، وزارة التربية الوطنية الجزائر. ص .98

5--Poulfoulique: dictionnaire de la langue philosophique, presse universitaire de France, Paris, 1962, P637.

6 - جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ج2، ص .369

7- -Poulfoulique: dictionnaire de la langue philosophique, Op. cit, P638.

8- -Cf-Rabrit: La faute en droit privé, thèse, Paris, 1946, p106

9-C Larrourmet: La responsabilité civile; Paris, 1976, P 7 .8.

10- بلحاج العربيK النظرية العامة للإلزام في القانون المدني الجزائري، ج2، ط6، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2014، ص .09

11- جميل صليباKالمعجم الفلسفي، ج2، ص .329

12 - راجع المادة 2/2 والمادة 4/6 والمادة 381 ق.إ.ج.ج. راجع: د.بلحاج العربي: التنازل في القضايا المدنية والقضايا الجنائية، جريدة المساء 29 مارس و 05 أفريل .1988

13 - جميل صليبا،المعجم الفلسفي، ج2، ص .369

14 - المادة01 من قانون الإجراءات الجزائية الجزائري الصادر بالأمر 155/66 المؤرخ في 08 جوان 1966.

15 - راجع المادة 2/2 والمادة 4/6 والمادة 381 في هذا الموضوع. راجع د. بلحاج العربي: التنازل في القضاء المدني والقضايا الجنائية، جريدة المساء 2 و 5 أفريل .1988

16 - عمر سعد الله، مدخل في القانون الدولي لحقوق الإنسان، ط5، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2009، ص .254

17 - مراد وهبة، المعجم الفلسفي، ط5، دار قباء الحديثة، القاهرة، 2007، ص .593

18 - جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ج2، ص .380

19 -Cf- Rabut: La faute en droit privé, thèse, Paris, 1996, p106

20 - إيمانويل كانط، تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق، ص19

21 – المرجع نفسه، ص .104

22 - المرجع نفسه، ص .104

23 -François Ewald : L'expérience de la responsabilité, Thomas Ferenczi, Paris, 1995, P12 .

24 - بول ريكور، العدل، ج1، محمد البحري وآخرون، تنسيق فتحي التركي، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون، بيت الحكمة، تونس قرطاج، د ت، ص 55.

ثالثا/ الأنا و الغير

" إن أفضل وسيلة لمعرفة النفس هي أن تسعى لمعرفة الغير"

أندريه جيد

ثالثا/ الأنا و الغير

1- الأنا في الفلسفة الغربية المعاصرة

يعتبر الأنا مفهوم مركزي في الفلسفة الغربية المعاصرة، ومنه انطلقت الكثير من الفلسفات سواء العقلية أو الوجودية أو الظواهرية برغم اختلاف هذه الفلسفات و المذاهب في تفسيرها لمفهوم الأنا ونظرتها للآخر ، وحتى ندرك حقيقة ما ذهب إليه ليفيناس في تصوره للأنا وكيف يساهم هذا التصور في تأسيس أخلاق المسؤولية، علينا أن ندرك أولا حقيقة مفهوم الأنا في مقابل الآخر .

أ/ تعريف الأنا

اختلفت وتباينت تفسيرات الفلاسفة والباحثين للأنا، فالمعنى النفسي للأنا ، يدل على وعي الفردية التجريبية ، أي أن الأنا ليس سوى مجموعة الأحاسيس التي يشعر بها ، وهي تلك العمليات العقلية العليا التي يمارسها من تخيل و ادراك وحب وكره وتذكر بحيث تميز هذه الخصائص والوظائف الأنا عن غيره[1].

وفي المعنى الأنطولوجي فإن الأنا تدل على جوهر حقيقي ثابت يحمل الأعراض التي يتألف منها الشعور الواقعي سواء كانت هذه الأعراض موجودة معا أو متعاقبة ومتتالية ، فالأنا مفارق للإحساسات والعواطف

والأفكار، لا يتبدل بتبدلها ولا يتغير بتغيرها، إن لذاتنا وآلامنا و آمالنا ومخاوفنا وجميع إحساساتنا تجري أمام عيني الآخر الذي يشاهدنا [2].

ومنطقيا تعني الأنا ذات مفكرة، بحيث تكون وحدتها وهويتها مع الشروط اللازمة، المضمنة بتوليف المعطى المتنوع في الحدس، وبترابط هذه التمثلات في وعي ما[3].

غير أن هناك من الباحثين من يعرف الأنا بأنها هي نفسها الذات وإلى الذات ترد أفعال الشعور جميعها، وجدانية كانت أو عقلية أو إرادية، وتفكير الذات هو دائما واحد ومطابق لنفسه، وليس من اليسير فصله عن أعراضه، ويقابل مفهوم الأنا الغير والعالم الخارجي، ويحاول فرض نفسه على الآخرين، وهو أساس الحساب والمسؤولية[4].

والأنا التجريبي هو الشعور بالفردية التجريبية والتعالي، وهو الحقيقة الثابتة التي تعد أساسا للأحوال والتغيرات النفسية ومطلق وهو التفكير الذاتي العالق على التجربة[5]. و على الرغم من تشعب مناحي المفهوم واختلاف توجهاته، فإن القاسم المشترك الذي يجمع كل هذه التعاريف و الأنواع هو أن الأنا مفهوم جوهري لتحديد مكان الإنسان من الوجود.

ب-الأنا في فلسفة ليفيناس

يعتقد ميشال فوكو أن هناك تصدعات في الثقافة الغربية ، بداية من التصدع الذي سببه كوبرنيك، والتصدع الذي سببه داروين حين

اكتشف أن الإنسان مولود من قرد، والتصدع الذي سببه فرويد " حين اكتشف أن الوعي يقوم على اللاوعي "[6]. إذ ان فرويد بهذا نسب إلى العقل أشياء لا عقلانية أي أن هناك لا وعي داخل الوعي ، اللاوعي هو اللاشعور والوعي هو العقل.

هذه التصدعات الثلاث يضاف إليها تغير مفهوم المعرفة لدى المجتمعات المعاصرة ،مما أدى إلى فقدان المعنى الفعلي لوجود الإنسان كما أراده الدرس الفلسفي للإنسانية جمعاء، غير أن ما تطرحه الثورة العلمية اليوم ممثلة في الثورة البيولوجية الرهيبة و تطور الوسائل والإعلامية والاتصالية والتقنية والعولمة من مشاكل فلسفية وحياتية وأخلاقية واجتماعية، لا يمكن لغير الفلسفة أن يعالجها [7].

يمكن القول أن التطور العلمي وما صاحبه من تطور في مجال التكنولوجيا و تقديس الالة ادى الى انهيار الوجود الانساني و انهيار علاقة الإنسان بالإنسان ، وهذا ما أدى إلى تنشيط فلسفة الغيرية مع ليفيناس، وتجديد علاقة الانا بالآخر، فالفلسفة الجديدة لا تهتم بالذات أو الأنا فقط، بل تتجاوز الذات إلى الآخر أو الغير وكان لفيلسوف الغيرية ليفيناس دور مهم في تأسيس هذه الفلسفة.

لقد رأى ليفيناس إن إشكالية الوجود كما طرحها الفكر الغربي المعاصر اعتبرت الأنا مركز الوجود، و هذا الطرح يدعو إلى الانطواء على الذات والأنانية، وهذا راجع لطرح مفهوم الكائن بطريقة يغيب فيها

اعتبار خصوصياته التي لا تتحقق إلا في علاقته مع العالم، أي في علاقته مع الغير [8].

لقد مارست الفلسفة الغربية اضطهادا كبيرا اتجاه الاخر و العالم من خلال مركزية التفكير لدى الانا و مركزية الوجود ايضا ، و اختزل الاخر في الفلسفة الوجودية في العبارة القائلة ، "الجحيم هم الآخرون" للفيلسوف الفرنسي الوجودي جان بول سارتر، ومع الفلسفة الظواهرية التي قدمت نفسها على أنها فلسفة مهمتها " إصلاح الإنسانية" وفق إصلاح الذات، وذلك بتذكيرها بهويتها وبالعودة إلى البيذاتية والذاتية اللتين وقع تغييبهما بفعل الموضوعية[9] ، وعملية الاعتماد على المنطق الرياضي في فهم الذات و تفعيلها و تصحيح المفاهيم أو ما أطلق عليه مصطلح ترييض الطبيعة .[10] و في هذا الواقع تحول ليفيناس إلى ناقد و معدل و مجدد الفلسفة الغربية، منددا بالسياسة التوسعية للعقل والحرية التي ترفض غيرية الآخر المطلقة، وتقوم بتشكيله حسب تمثلاتها الذاتية ليسهل السيطرة عليه، وفي هذا الإطار يرفض ليفيناس التفكير في الآخر من خلال الذات ،لأن الآخر ليس مجرد شيء نحتويه، كما أن الآخر لا يسلب الذات كيانها ،بل هي غيرية غير قابلة للاختزال، يقول ليفيناس" نحن محاطون بالموجودات وبالأشياء، حيث نتعهد معها بعلاقات عن طريق النظر واللمس والتعاطف، وبالعمل المشترك فنحن مع الآخرين، وكل هذه العلاقات انتقالية: المس شيئا، أرى الآخر، لكن أنا لست الآخر"[11] .

انطلاقا من هذا يدعو ليفيناس إلى ضرورة اللقاء بالآخر ويمثل اللقاء به إطاحة بالذات وكسرا لوهم اكتفاءها بذاتها، فسؤال العلاقة مع الآخر يبدو أكثر أهمية و مركزية من سؤال الوجود عند ليفيناس، ومن هنا فالإيتيقا أولى من الانطولوجيا، وهذا ما كان موضوع شعاره "الإنسان أكثر قداسة من كل ارض مقدسة" ، فقد جاءت فلسفة ليفيناس لتؤكد أن الأخلاق فلسفة أولى، فليست الأخلاق مجرد مبحث من مباحث الفلسفة بل هي مركز الحياة و ضرورة الضرورات يقول ليفيناس " الأخلاق ليست فرعا من الفلسفة، وإنما هي الفلسفة الأولى "[12]. وليست الأخلاق مجرد شعبة من شعب الفلسفة بل هي الفلسفة الأولى و هي مركز الفلسفة و محور محاورها.

وبهذا يمكننا القول أن ليفيناس فيلسوف الغيرية بامتياز " خاصة من خلال تأسيسه للعلاقة الإيتيقية بين الأنا والآخر، إذ يؤكد دوما على ضرورة أن تكون هذه العلاقة علاقة تواصل ومشاركة، قائمة على المحبة المتبادلة والهوية لديه تكمن في الاختلاف والتمايز لا في التطابق، لأن الآخر يفقد غيريته إن كان مشابها للأنا، في حين أن الاعتراف بغيريته هو اعتراف بإنسانيته، وبالتالي فان الهوية تبنى على أساس الاختلاف وليس العكس[13].

معنى هذا أن الأنا والآخر يشتركان في كونهما ينتميان إلى النوع الإنساني، لكن لا تشابه بينهما فهما مختلفان، ولكن هذا الاختلاف لا يؤدي إلى الصراع بل قوامه علاقة إنسانية إتيقية.

بل إن الهوية تتأسس على الاختلاف ونحن لا ندرك حقيقة قوة ذاتنا ما لم نختلط بالمغاير، يقول ليفيناس" أن نتكلم هو في نفس الوقت أن نتعرف على الآخر، وهذا التعاطي الذي يتطلبه الكلام هو بالتحديد العمل بدون عنف"[14].

إن الكلام الخالي من العنف في نظر ليفيناس هو أساس نجاح العلاقة مع الآخر، فليفيناس يؤكد أنه عن طريق محاورة الآخر تنكشف الهوية فعن طريق اللغة تهيكل هوية الذات ، ومن خلالها تتحقق الأخلاق والقيم حيث يقول ليفيناس " الواحد يعرض نفسه على الآخر مثل الجلد الذي يعرض نفسه للذي يجرحه "[15].

وللتنبيه نؤكد بأن ليفيناس يؤكد على تقديس كل من كانت له علاقة باليهود خاصة اليهودي نفسه ، فالأولوية له في التعامل والتحاور وهذا تأكيد على أساس من أسس الهوية عند ليفيناس عاملا بالمقولة الأساسية لليهود " شعب الله المختار ". هنا تكمن المشكلة في فلسفة ليفيناس، وكأنه يريد من الغيرية احترام الأقلية اليهودية المضطهدة في بعض بقاع العالم و عدم اعتراف بعض الدول بالكيان الاسرائيلي و من هنا يمكن القول بأن فلسفة الغيرية عند ليفيناس ليست ذات منطلق نزيه بل هي فلسفة موجهة لتحقيق كيان فئة معلومة هي الأقليات اليهودية.

وينتقد ليفيناس المباحث الانطولوجية التي سبقته في كونها غير قادرة على إدراك الغيرية وأبعادها الأخلاقية، وأنها تتعامل معها بالعنف والتهميش والتغريب، لهذا كانت محاور فلسفته تدور حول التسامح والخير والمحبة والاعتراف بالآخر، فقد أضاف بجد لعلم الوجود لمسات أخلاقية وإنسانية كانت غائبة مناديا بإنسانية الإنسان الآخر، فهاته الأخلاق النظرية تتجلى في تجربة الوجه لوجه أو علاقة اللقاء بالآخر يقول ليفيناس " هذه الحالة هي العلاقة مع الآخر"[16] . طبعا احترامنا لفلسفة ليفيناس هذا يكون بعد عزل فلسفته عن عنصريته.

والوجه يعتبر حسب ليفيناس مرآة عاكسة لكينونة الأنا، وهو هوية الكائن، فالعلاقة مع الوجه هي علاقة أخلاقية ينبغي على الآخر احترامها والاعتراف بمنزلتها، والوجه لا يقبل الاختزال في الوعي أو الإدراك، ولا يرضى التملك أو الاحتواء " إن الآخر وجه لغة لا يمكن اختزالها، الوجه هو الآخر المطلق لكن الحقيقة ترفض القسمة، وهي لذلك ترفض الآخر ... وعي معلق وليست فردية في كلمة عنف" [17]. والوجه بهذا يصبح عنده سيد للعدالة، إذ يقضي على فكرة العنف يقول ليفيناس " إن العلاقة بالوجه هي علاقة على الفور أخلاقية "[18].

لذا فلقاء الآخر يسمح لي بأن اكشف وجهه، والوجه هو هوية الكائن وحقيقته، ومن خلال وجه الإنسان الآخر تظهر في آن واحد قداسة الكائن وتعاليه، ولأن " الوجه في عريه كوجه يقدم لي فاقة الفقير والغريب، وتعاليه، ولأن اللامتناهي تقترب فكرته مني من خلال معنى

الوجه...وفكرة اللامتناهي تدل على علو ونبل وتعالي "[19]. على هذا النحو فإن ما يمنحني النبل والتعالي والتناهي هو استجابتي وتقديري لوجه الآخر. وهو الذي يؤكد هويتي.

2/ تعريف الآخر

قبل أن نتطرق إلى تعريف الآخر يجب أن ندرك بأن فلسفة جون ستوارت مل الاجتماعية هي السباقة للاعتراف بالآخر، على عكس فلسفة ديكارت و فلسفة هوسرل، غير أن فلسفة الآخر لم تتحرر من الإشكالية الابستمولوجية إلا في فلسفة ليفيناس، الذي يتهم أسلافه من بينهم هوسرل، باختزال الآخر و إقصائه من منظومة الوعي مما جعلهم يفشلون في إقرار آخرية الآخر المطلقة، أي أن الآخر على نحو متطرف يتجاوزني ويتجاوز الكل الذي أتوق أن أضعه فيه، إذن الآخر هو الذي يثير سؤال الأخلاق، وبهذا تصبح أولية الآخر مكافئة لأسبقية علم الأخلاق على الانطولوجيا . كما أثيرت مسائل حول هذا المفهوم للآخر لقد تساءل دريدا ما إذا كانت آخرية الآخر. المطلقة ليست مكونة حتما من حقيقة أن الآخر مغاير لما هو معطى ابتداء، لهذه الإشكالية المنطقية مترتبات مدمرة على المستوى السياسي إذ لم يحظى الآخر بالأسبقية الأخلاقية التي يمنحها إياه ليفيناس على هذا النحو يمحو الاستخدام السائد الآن للغة الآخرية في الخطاب الانثروبولوجي في وصف مواجهة العرب للثقافات غير الغربية شرط الحفاظ على جعل الخطاب المهيمن

محصنا، تماما كما أن الإشارة إلى الأنثى بوصفها آخر إنما تعيد توكيد أفضلية الذكر[20].

ويوظف دريدا الأخلاق — شأنه شأن ليفيناس — لمهاجمة العالم الاجتماعي السياسي، إذ يعتقد أنه لا مسؤولية من دون انفصام مغاير ومُبتكر عن التقاليد أو السلطة أو المعتقد التقليدي أو القواعد أو العقيدة، فالأخلاق صورة من الطليعة الروحية التي تهاجم بقوة خمول للحياة اليومية، ولا يبدو أن هذا ما يراه دريد، حيث إنه أسير التعارض الشديد بين ما هو معارض وما هو معياري، لدرجة أن يرى تقاليد مجددة وتقاليد قمعية، ويتميز عمل دريدا بـ بالافتراض الأساسي أن كل ذات أو كينونة معزولة تماما عن كل الآخرين، و يرى دريدا أنه بين عالم الذات وعالم الآخرين هناك انقطاع غير متناسب مع كل محاولات المرور والتجاوز والعبور والاتصال والترجمة والنقل. فليس هناك علم واحد بل جزر منفصلة فقط، فنحن لا نتعامَل مع الغيرية، بل مع الانعزالية.

واستخدمت فكرة الآخر أيضا من قبل مفكرين أوروبيين آخرين بمعنى أوسع، هكذا يعد كل من الموت، والجنون، واللاوعي آخر، و في كل حالة يكون تحدى الآخر هو التحدي نفسه، كونه غير قابل بطريقة ما لأن يختصر ضمن أشكال فكر الفلسفة الأوربية دون رد آخريته[21]. والاعتراف بهذا المفهوم للآخر يدعونا حتما الى تبني أخلاق جديدة هي أخلاق الاختلاف.

3- تعريف الاختلاف

من معاني الاختلاف أنه علاقة مغايرة بين الأشياء المتماهية من زاوية أخرى، ، أي لا تختلف بجوهرها ذاته أو بتحديدها ، وهو سمة تميز نوع من أنواع أخرى دون جنس واحد، وتأخذ أيضا معنى المغايرة أو الذاتية[22].

ويتعمق مفهوم الاختلاف عند لالاند من خلال مؤلفه " ما بعد الطبيعة "، مركزا أساسا على المرحلتين القديمة والحديثة، حيث يعني الاختلاف عند أرسطو علاقة مغايرة بين شيئين متماثلين، والمقصود بالمغايرة في نظر لالاند خاصية ما هو آخر، أي ذلك الذي يتحدد كمقابل للمماثل بالنظر إلى أن كل شيء، حيث اعتبره أرسطو هو بالنسبة لكل شيء، وإما مماثلا له (هو، هو) وإما مغايرا أو مختلفا [23].

وبذلك تتعارض المغايرة في هذا المعنى مع الهوية، ومن هنا يقع التمييز بين الأشياء المختلفة عدديا، والتي تختلف فقط لمجرد أنها متعددة والأشياء المختلفة اختلافا نوعيا، أي التي تختلف من حيث ماهيتها ذاتها، ومن حيث تعريفها. وفي هذا المعنى الأخير يجري الحديث في مجال النطق عن الاختلاف بما هو خاصية جوهرية تميز نوعا من باقي الأنواع داخل نفس الجنس، ويتحدد مفهوم الاختلاف في الفلسفة الحديثة بوصفه الخاصية التي تميز مفهوما عن معنى آخر، أو شيئا عن شيء آخر[24].

ويعتقد لالاند إلى أن للاختلاف معنيين أساسيين ،فهو من جهة يشير إلى علاقة بين طرفين أو أطراف مختلفة، ومن جهة أخرى يعني الخاصية أو الخصائص التي تشكل هذا الاختلاف.[25].

ويوجد الاختلاف ويتحدد داخل كل كائن باعتبار الخاصية التي تحدده، والتي تجعل منه كيانا فريدا متميزا عن ما عداه، إذ أن الاختلاف بين طرفين يندرج داخل كل واحد منها كهوية سلبية بالقياس إلى ذاتها وذلك لأنه اختلاف الذات بالنسبة لذاتها. فالاختلاف يعني ابتعاد أو فجوة، الاختلاف ينقل طبيعتين لا تتمايزان في البداية مبعدا إحداهما عن الأخرى، إلا أن هذا الابتعاد ليس انفصاما إنه على العكس من ذلك يقرب بين الطرفين اللذين يباعد بينهما، وهذا المفهوم لا يأخذ معنى جديد في العصر المعاصر، ومع فلاسفة الاختلاف و من بينهم جاك دريدا [26]. ونلاحظ أن مفهوم الهوية فلسفيا يتحقق في الاختلاف الذي بدوره يتحقق في الغير، وهو أساس كل هوية ليفيناسية.

وعلى هذا النحو فإن أخلاق الاختلاف هي الأخلاق التي يؤمن بها الأقوياء الذين لديهم ثقة بالنفس والتزام بالمبادئ، فلا يهمهم المغاير عكس الإنسان الضعيف الذي يحاول أن يبيد المخالف خوفا من أن يزيل هذا المخالف هويته و يقضي على وجوده، كما أن الهوية ترتبط بمفهوم الغير أو الآخر، ولا معنى للآخر في وجود التشابه.

الهوامش

1- اندريه لالاند، الموسوعة الفلسفية، ترجمة خليل احمد خليل، ط2، منشورات عويدات، بيروت، باريس ، 2001، المجلدات الكامل ،ص824.

2- جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ج1، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، 1982، ص.140

3- اندريه لالاند، الموسوعة الفلسفية، ص825.

4- ابراهيم مذكور، المعجم الفلسفي، معجم اللغة العربية، الهيئة العامة لشؤون مطابع الأميرية ، القاهرة، 1983، ص23.

5- المرجع نفسه، ص23.

6- فريديريك نيتشه، الفلسفة في العصر المأساوي الإغريقي، تقديم ميشال فولو، ترجمة سهيل القش، ط3، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، 2005، ص08.

7-البخاري حمانة، دفاعا عن الفلسفة، مجلة الثقافة، العدد 94، مجلة تصدر عن وزارة الثقافة والسياسة، الجزائر، يوليو- أغسطس، 1986، ص25.

8- محمد حمدوني، الوجه وانطولوجيا الغيرية عند ايمانويل ليفيناس

http://ultrasawt.com

9- سلمى بالحاج مبروك، إيتيقا المسؤولية تجاه الآخر عند ايمانويل ليفيناس، مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث، الرباط، المملكة المغربية، 2015، ص02.

10- محمد الجوة، مسائل فلسفية، الفصل الثامن، ما هي الفينومينولوجيا، مركز النشر الجماعي، تونس، 2000، ص283.

11- ايمانويل ليفيناس، الزمان والآخر، ص15.

12- المصدر نفسه، ص09.

13- عبد الله موسى، إتيقا الإختلاف عند ايمانويل ليفيناس، مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث، الرباط، المملكة المغربية، ص06.

14- بول ريكور، الذات عينها كآخر، ترجمة وتقديم وتعليق جورج زيناتي، ط1، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، لبنان، نوفمبر 2015، ص160.

15- المرجع نفسه، ص164.

16- ايمانويل ليفيناس، الزمان والآخر، ص86.

17- سمير بلكفيف، الفلسفة الأخلاقية، دار الأمان، الرباط، الجزائر، 2013، ص411.

18- سلمى بالحاج مبروك، اتيقا المسؤولية تجاه الآخر عند ايمانويل ليفيناس، ص03.

19- جويل هنسل، ليفيناس من الموجود إلى الغير، ص33.

20- عبد القادر بلعيد، هشام حسان، أحمد العابد، " المجيب " فرنسي عربي، معجم وظيفي لغوي، ط1، دار اليمامة، الصين، 2007، ص.83

21- تدهوندرتش، دليل أكسفورد، ترجمة نجيب الحصادي، ج1، ا لمكتب الوطني للبحث و التطوير، ليبيا، 2003، ص36

22- أندريه لالاند، الموسوعة الفلسفية، ص 282،283

23- سالم يقوت، مفهوم الاختلاف، مجلة مدارات فلسفية، عدد 03، فبراير 2000، ص 65،68.

24- المرجع نفسه ، ص47.

25- المرجع نفسه، ص47.

26- المرجع نفسه، ص69.

رابعا/ الغير في فلسفة ليفيناس

"إن الطيبة تقوم باعتبار الآخر أهم من الذات"

ليفيناس

رابعا/ الغير في فلسفة ليفيناس

على الرغم من قدم العلاقة بين الأنا والآخر وتنوع صورها بين الحب والعطف والاحترام والصداقة والقرابة والإيثار والصراع والتنافس والعداوة، وعلى الرغم من كل الدعوات الكبرى إلى أداء واجب الضيافة ومساعدة الجيران والفقراء وحب الخير للآخرين واحترامهم إلا أن الواقع يكشف لنا عن تهميشه لمشكلة الغيرية، فقد تمركزت الأنا حول ذاتها واهتمت بتفسير الوجود الخارجي كما برهنت التطبيقات العلمية عن قدرتها اللامحدودة في إحداث التغيير الذي لم يقتصر على الإنسان وحده، بل تعدى ذلك ليشمل الكون بأسره من خلال هيمنة التطور التقنو علمي على حياة الإنسان وبيئته، مما أدى إلى ظهور قضايا معقدة مست كرامة الإنسان ووجوده فقد تطورت بشكل غير عقلاني، وأفرز هذا طمس للقانون والقيم الأخلاقية بالدرجة الأولى وانتصار التقنية على الإنسان، فضيع الإنسان معالمه الإنسانية والأخلاقية والإيديولوجية والثقافية، ذلك أن العلم ضل طريقه وحاد عن غايته ألا وهي ترقية حياة الإنسان وتسهيل سبل حياته فقد أصبح الإنسان أقل شأنا من الآلة، مما أدى إلى اختزال الإنسان و انتهاك كرامته، إذ تم تجاهل الكيان الإنساني وتحويله إلى مجرد جثة باردة مهدورة الكرامة، ومن الكرامة يجب أن ننطلق في تعاملنا مع الآخر ويعطي ليفيناس مكانة مميزة للغيرية والآخر و منه التوجه إلى أخلاق المسؤولية أين يصبح الغير مركزا .فكيف تتحقق هذه المكانة لدى الأنا عند ليفيناس ؟

1- الأخلاق كميتافيزيقا أولى عند ليفيناس

وتتحقق الأخلاق كميتافيزيقا أولى من خلال نظرة الأنا للغير على النحو التالي:

أ-تعريف الغير

مصطلح الغيرية مشتق من الغير ، وهو كون كل من الشيئين خلاف الآخر، وقيل كون الشيئين بحيث يتصور وجود أحدهما مع عدم الآخر وهي بخلاف الإثنية، لأن هذه الأخيرة ذات وحدتين ويقابلها الطبيعة ذات وحدة أو وحدات، ولفظ "الغير" في علم النفس مقابل للفظ "أنا" ، فكل ما كان موجودا خارج الذات المدركة أو مستقلا عنها كان غيرها. ويطلق على الشيء الموجود خارج الأنا اسم "الآخر" ، والغيرية عند المحدثين هي الإيثار، وهي مقابلة للأنانية، وتطلق في علم النفس على الميل الطبيعي إلى الغير، وفي علم الأخلاق تدل على القبول بوجوب تضحية المرء بمصالحه الخاصة في سبيل الآخرين [1].

إنها التضحية من أجل الآخرين بالمبدأ الموجه للفعل، على نحو قصدي وإرادي، ينجز من أجل منفعة شخص آخر. ومنه كان مشروع ليفيناس هادفا إلى الكشف عن العلاقات الحقيقية بين البشر في الوجود الخارجي، وهذا هو النقيض تماما مع فلسفة "سبينوزا" وغيرها.

لذلك نلاحظ أن الغيرية كانت هي القضية الاساسية في فلسفة ليفيناس، وهذا يتجلى في جل محاضراته التي ألقاها في كلية الفلسفة حول الزمان والآخر في عام" 1946-1947" إضافة إلى عمله المتأخر حول

"الله والفكرة" ، الزمن كغيرية، الوجود كغيرية، اللغة كغيرية، والشخص الآخر كغيرية (الغير)، والله كغيرية، كل هذا يشير إلى موضوع ذي دقة وعظمة ذلك أنه يريد أن يتجاوز الفكر الفلسفي السابق [2].

فالمهمة الرئيسية لفلسفة ليفيناس ليست تأسيس نظرية للمعرفة أو نظرية سياسة كباقي الفلاسفة، وإنما فهم العلاقة بالآخر بوصفها أصل كل علاقة بالوجود، ويتجلى ذلك في القدرة على الاعتراف بغيرية الآخر واحترامه، وليس في محاولة اختزاله في هوية الشبيه، لهذا صاغ فلسفة مختلفة عن باقي الفلسفات الغربية عن طريق الاستعاضة بالأخلاق التي اعتبرها ليفيناس "الفلسفة الأولى" بديلا عن الأنطولوجيا التقليدية التي اعتاد عليها جل الفلاسفة الغربيين، هذا ما سنتعرف عليه من خلال دراستنا الفلسفية لفلسفته.

أمام كل هذه الظروف والمعطيات اندفع ليفيناس إلى نقد الفلسفة الغربية منددا بمحاربة الانكباب على الذاتية الثابتة، وتغير الرؤى الميتافيزيقية نحو الآخر، مطالبا بإعادة الاعتبار للآخر في تعاملاتنا وفي مسؤولياتنا اتجاهه، وفي ضرورة الاعتراف به، في احترامه كآخر مختلف عني، في التحاور معه و الإصغاء إليه ،لأن الآخر حسب ليفيناس ليس أنا أو أنا أخرى، كما أن الآخر لا يسلب الذات عينها، بل هو غيرية غير قابلة للتهميش والاختزال: فما هي الأمور التي هي على المحك في مشروع ليفيناس لتأسي أخلاق المسؤولية؟

للإجابة على هذا السؤال نلاحظ أن الغيرية كانت جوهر فلسفة لفينانس ، وهذا المسار كما يقول ليفيناس بعيد عن الأنطولوجيا (علم ما

هو كائن) أو الابستمولوجيا أو العقل، فهو الانتقال إلى نقطة تتم فيها مواجهة الغيرية عارية بكل تجردها إلى نقطة يتم فيها الإقرار بعدم إمكان اختزالها ، ومن هنا نلمس أن فلسفة ليفيناس تتمركز حول سؤال جوهري هو سؤال العلاقة مع الآخر، أكثر من سؤاله عن الوجود، وكانت الأفضلية عنده ممنوحة للإتيقا على حساب الأنطولوجيا، بحيث تتحول بموجبه الذات من ذات حارسة للوجود إلى ذات حارسة للآخر، وهو ما يسميه ليفيناس "بالمسؤولية تجاه الآخر".

إن فلسفة ليفيناس الإتيقية هي محاولة للتقرب من الغير اللانهائي بفتح صفحة أخلاقية جديدة معه هي "وصل بعد فصل وقطع" بين الذات والغير عبر التذاوت والتفاهم والتخاطب والاعتراف، واللاعنف والمسؤولية المتبادلة: فما هي المسالك الإتيقية التي اتبعها ليفيناس في محاولته للتقرب من الغير اللانهائي؟ وما طبيعة العلاقة التي تبينها الذات مع الآخر اللانهائي؟ ولماذا كانت فلسفة ليفيناس فلسفة قائمة على "الإتيقا" (إتيقا الوجه). إذ لا إتيقا بلا وجه و لا وجه بلا إتيقا، فما المقصود بالإتيقا؟ وما علاقة الوجه بإنسانية الإنسان؟

إن مشروع "ليفيناس" الحقيقي يرمي إلى الكشف عن أصل العلاقات الحقيقية بين البشر في الوجود الخارجي الميتافيزيقي، وهذا هو النقيض تماما مع بعض الفلسفات التقليدية. إذ طالب ليفيناس في نظرياته للغيرية بإعادة الاعتبار في تعاملنا مع الآخر، في مسؤوليتنا اتجاهه، في الحق بالاعتراف به، في احترامه كآخر مختلف عني، والإصغاء إليه والحوار معه بخلاف "الحداثة" التي فهمت الوجود على نحو كلي

ينطلق من الأنا الممجد لذاته، بوصفها أنا شمولية تعيش في العالم متطابقة مع ذاتها ضد الآخر ، و يعترض ليفيناس على هذا التعامل العنيف مع الآخر، داعيا إلى ضرورة تطوير العلاقة معه، ومحاربة الانكباب على الذاتية الثابتة وتغيير الرؤى الميتافيزيقية نحو الآخر، ذلك أن "الظاهرة الخلقية هي بالضرورة نقطة تلاقي الشعور بالذات مع الشعور بالآخرين" [3].

وهذا ما يدل على دعوة ليفيناس الواضحة إلى ضرورة إكرام وضيافة الآخر ذلك فإن "هذه العلاقة هي العلاقة مع الآخر الإنساني" [4]. ومنه كان الوجه حسب ليفيناس يمثل مرآة عاكسة لكينونة الأنا، إذ يبرز الآخر وينعكس من خلال الوجه، فهو بمثابة هوية الكائن لهذا كانت العلاقة مع الوجه علاقة مبهرة على أرضية أخلاقية، حيث بإمكان الذات أن تكون نموذجا لاستقلال الآخر وإكرام ضيافته . وهذا ما يتجلى في الأخلاق الجديدة التي أسسها ليفيناس.

ب- الأخلاق كفلسفة أولى عند ليفيناس

إن العنوان الأساسي والأبرز لفلسفة ليفيناس هو "الأخلاق كفلسفة أولى"، أي الأخلاق كميتافيزيقا للفلسفة الأولى ، فمن منا لا يذكر كلمات ليفيناس عقب مذبحة "صبرا وشاتيلا" "الإنسان أكثر قداسة من كل أرض مقدسة". جاءت فلسفة ليفيناس أو أخلاقه كفلسفة أولى أخلاق الأخلاق كما يسميها – ليفيناس - لأنها لا تبغي بناء قواعد أخلاقية تفكيكا لتقليد الأنوي للفلسفة الظاهراتية من جهة و لأنطولوجيا هيدغر

بعمائها الأخلاقي من جهة ثانية، كتابه الرئيس "الكلية واللانهائي" تفكيك لمنطق الشبيه، للشبيه كبنية كلية أو الكلية كسيطرة وإدماج للآخر، لكن الكتاب يؤسس أيضا لأخلاق ضعيفة لا تريد أن تصنع من الآخر أنا أخرى كما هو الحال عند "هوسرل"، وحال كل فلسفة تقوم على وعي اجتماعي وفي هذا يقول ليفيناس "إن بناء جسد الغير وفق ما يسميه هوسرل "الدائرة الأولية " "المزاوجة"، لتعالي الموضوع هكذا ينبني مع جسدي المعبر بذاته من داخل كأنا أستطيع فهم جسد الغير كأنا آخر يخفي في مراحله ما نتناوله لأجل وصف بناء، وتغير بناء الموضوع في علاقته مع الغير، والذي هو أيضا بالنسبة للبناء الذي نبحث عنه" [5]. إذ تعد الإتيقا من أبرز المحاور التي شغلت فكر ليفيناس، ذلك أن الإتيقا عند ليفيناس "ليست فرع للفلسفة لأنها بمثابة الفلسفة الأولى، وترتبط الإتيقا مباشرة بالعلاقة مع الغير فيسمي ليفيناس وضع عفوية الأنا موضوع سؤال أمام حضور الغير إتيقا" [6].

فالدائرة الأولية لا تنفك على الشبيه إلا إذا توجهت نحو المطلق الآخر. أما الجسد عند ليفيناس فيقحم الذات في الغيرية و العمل.

إذا كان الآخر عند هوسرل يخضع لعمليات الإدراك كباقي الأشياء التي تدرك قصديا وذلك باتصال الذات بالموضوع، فإن الآخر عند ليفيناس لا يمكن أن يخضع لعمليات الرد والاختزال، لأن الآخر غريب عن الأنا، وغربته هي من تحفظ المسافة التي تجمعنا به فالآخر الغريب هو غير المختلف، المتعالي وعلاقتي به لا تكون على أساس أنه موضوع. بل أيضا ذاتا فقط ليست شبيهة بالأنا، والانفصال يعني عدم إخضاعه للأنا

فهو حر، فلا يمكنني أن أختزله في وعي، وبالتالي لا يمكن أن يكون موضوعا، بل هو الآخر المطلق، ومنه كانت علاقة "الوجه للوجه" التي يركز عليها ليفيناس تفهم الوجه على أنه موضوع التخاطب الأخلاقي الذي يتجاوز الاختزال والاستبدال، فهذا الوجه يطالبني دائما بمطلب أخلاقي أكون مضطرا للاستجابة له [7].

ففعل الاضطهاد الذي يصدر عن الآخر ضدي يفقدني خصوصيتي المتمثلة في الوجه، وبهذا يصبح العنف الذي يقع علي نفسه نقطة تكشف ضعف دفاعاتي عن نفسي وانكشافي أمام الضرر، وهنا تكمن أهمية الأخلاق والحاجة إلى تحمل المسؤولية.

إنه تأكيد على الأخروية في قلب العلاقة مع الآخر، مهما فعل الآخر فإن وجهه يعيدني إلى ضرورة الاستجابة له، وهناك علاقة لم أخترها أنا بمحض إرادتي تمنعني من الثأر منه، ولا يمكنني بأي حال من الأحوال أن أختزله في وعيي، لا من حيث لغته ولا من حيث دينه أو مكانته، ومنه يؤكد ليفيناس أن الآخر يستحيل معرفته قصديا يقول ليفيناس "إن العلاقة بين الكائنات المفصولة لا يمكن تعميمها، فهي علاقة بدون علاقة ولا أي شخص بإمكاننا احتواءه... فالعلاقة بين أجزاء الوجود المنفصلة هي وجها لوجه علاقة غير مختزلة وهي أخيرة" [8].

ذلك أن العلاقة وجها لوجه هي علاقة تداولية وليست جسدية تتم بين ذاتين منفصلين، فالآخر ليس انعكاسا للأنا ذاته كما يعتقد هوسرل وإنما الآخر متعالي، لأنه غريب وأجنبي عن الأنا وهو ما جعل ليفيناس يقول "إن العلاقة الميتافيزيقية لا تتعلق بذات الموضوع" [9]. لهذا اعتبر

ليفيناس الاختزال الفينومينولوجي عنف يقوم به الإنسان، ولكن الأنا حسب ليفيناس يبقى متعالي **.

لهذا يحاول ليفيناس من خلال فلسفته الإتيقية الجديدة التي يعتبرها فلسفة أولى، أن يبحث في شروط تحسين الذات في نمط علاقتها بالآخر، وأن تعيد حساباتها تجاه الآخر الذي قوبل بالرفض والتهميش والإهانة والتجاوز من خلال تاريخ طويل في طمس هوية الآخر وعدم الاعتراف بغيريته، لهذا نجد أن ليفيناس جعل الاعتراف بالآخر شرط لتأسيس علاقة أخلاقية معه، بل علاقتنا الأخلاقية مع الآخر تسبق علاقتنا الأنطولوجية بذاتنا وبالعالم. وهنا يصبح الآخر شرطا لهوية الذات.

ومنه كانت فلسفة ليفيناس الإتيقية محاولة للتقرب من الغير اللانهائي، وذلك بفتح صفحة أخلاقية بين الذات والغير عبر التذاوت والتفاهم والتحاور والتخاطب واللاعنف، والمسؤولية المتبادلة، ولهذا السبب تبدأ فلسفة ليفيناس الأولى من تفسير الأخلاق أو الإتيقا، والتي تختلف عن الأخلاق التي تسن الأوامر وقواعد السلوك الإنساني فالإتيقا قائمة على العلاقة المباشرة بين الأنا والآخر من خلال مفهوم الاختلاف، ولذلك يطلق ليفيناس على هذه العلاقة علاقة "إتيقية" لذا كانت الإتيقا هي "الحدث الأول الذي يأتي منه سؤال الحقيقة، ويصاغ منه معنى الكينونة وينبثق من خلاله إمكانية اللقاء مع الآخر الإنساني وجها لوجه" [10].

لهذا يحبب التمييز بين الأخلاق بمعنى الإتيقا وبين الأخلاق بمفهومها العام في تفسير ليفيناس، ذلك أن الأخلاق العامة يقصد بها مفهوم من مفاهيم القيم والسلوك في حين أن الإتيقا تطلق كما يقول ليفيناس على العلاقة بالآخر بصفته الفردية.

ويؤكد ليفيناس أن الإتيقا هي و حدها القادرة على بيان الدلالات الأولى التي تعطي للإنسان معنى كينونته، ولذلك أصبحت فيما يرى ليفيناس "وحدها قادرة على فهم الحدث الأول الذي أسس لسؤال معنى الكينونة الذي أثاره هيدجر في كتابه الكينونة والزمان، وهي بذلك تتقدم على الانطولوجيا أي علم الوجود إنها تشير إلى فضاء أكثر أصلية من هذه الأخيرة" [11].

لذا أطلق ليفيناس على الإتيقا الفلسفة الأولى، فيرى أن اللقاء بين الأنا والآخر لقاء أخلاقي، ومنه استبدل سؤال الوجود بسؤال الإنسان هذا الإنسان الذي يمثل حسبه مركز الفلسفة الأولى (الإتيقية) الجزء الذي أهملته انطولوجيا هيدغر، لهذا نجده يرفض تصور هيدغر الذي يضع العزلة داخل علاقة سابقة مع الآخر "يطرح هيدغر العلاقة مع الآخر كبنية أنطولوجية للدازين هذا أكيد، لكن عمليا هذه العلاقة لا تؤدي أي دور لا في دراما الكينونة ولا في المبحث التحليلي الوجداني فتحليلات الكينونة والزمان كلها تتمحور حول لا شخصائية الحياة اليومية أو حول الدازين المتوحد" [12].

هذا ما يرفضه ليفيناس، ذلك أن الاهتمام البالغ بالوجود عند هيدغر صار يمثل إهمالا للموجود ،كما يولد حالة من القلق ورفض

الذات، ذلك أن الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يبني معه علاقته الإتيقية، ومنه وضع ليفيناس مسألة "وجها لوجه" نقطة انطلاق لبدأ الفلسفة، ولم يبدأ من الوجود أو من الله، وذلك أن العلاقة بين الذات والآخر هي الشرط الرئيسي للاتصالات البشرية، وعلى هذا النحو يتشكل التعارض بين الأخلاق والأنطولوجيا، فالأخلاق تشير إلى مستوى ميتافيزيقي لا يمكن لأي أنطولوجيا بلوغه وهو الغيرية، وبالتالي "الأخلاق تقوم على أولوية الآخر، وذلك بالتعارض مع الأولوية التي تمنحها الانطولوجيا للذات" [13]. ويؤكد ليفيناس أن هذا لا يعني أننا نعيش في عالم خال من القيم، ولكن هناك علاقة بالآخر تتجاوز القيم والمعايير كلها، ولا يتم ذلك إلا من خلال الإتيقا التي هي الاستجابة الفورية للإنسان الآخر الذي يطلب علاقة من دون تفاوض أو شرعية من جانبي، ومنه أصبح الاعتراف بالآخر شرطا أساسيا من أجل قيام علاقة أخلاقية معه، ولا يمكن وجود الأخلاق من دون إتيقا، لذا اعتبر ليفيناس الأخلاق فلسفة أولى هي أخلاق الأخلاق مثلما وصفها دريدا.

إن وجود الذات يعني عند ليفيناس الخضوع، وهو ما يعني التعرض للطلب المجحف للآخر الكبير، وهو طلب لا يحبس نفسه في العقل، بل يظهر للوجود، ويشترك ليفيناس في هذا المجال في الكثير من النقاط مع كانط، لكنه لا يشاركه عدم ثقته في الإحساس، فالحياة عند ليفيناس هي الإحساس والمتعة ولذة الوجود، والأخلاق في نظره ليست هبة القلب بل القدرة على العطاء، أما الآخر فهو بالنسبة له إنسان تكمن بداخله صورة توحي باندماج مضطرب وليس متجانسًا للذوات، فمقاربة الأخلاق تكون

بالإحساس لا بالإدراك، ووجودنا يرتبط بالإحساس، والإحساس نفسه باعتباره انفتاحا على العالم، وهذا يعتبر صورة من السمو في ذاته فالسمو مغروس في أحاسيسنا و مشاعرنا و ليس فقط في عقولنا.

2- الأخلاق و علاقة الأنا بالأخر

يذهب ليفيناس إلى القول بأن الإتيقا تبدأ عند اللقاء بالغير وتحديدا عند استقباله كوجه، فعند النظر إلى الوجه يجب أن تكون لغة الإتيقا هي أول ما يمكن أن يسود، ويصف لنا ليفيناس هذه العلاقة بأنها علاقة غير متناظرة، فأنا مطالب تجاه الآخر أكثر مما قد انتظره في المقابل من الآخر بالنسبة لي، لذا كانت العلاقة غير متبادلة، ومنه يرفض تمركز الأنا حول نفسها ويصفها بالذاتية والأنانية، و يؤكد ليفيناس على ضرورة أن يدافع المرء عن حقوق الشخص الآخر بالدرجة الأولى أكثر مما يدافع عن حقوقه، لذا كان مسار العلاقة الاجتماعية منطلقا من الآخر إلى الذات وليس العكس، وهذه الفكرة غير المتناظرة واللاتبادلية هي التي تشكل جوهر الأخلاق الإتيقية عند ليفيناس، وعليه يصبح وجه الآخر في تجاوزه وتعاليه هو الذي يشكل الهيكل الكامل للبشرية يقول ليفيناس "لا يمكن للعلاقة بين الأنا والآخر أن تكون عكوسة، لأنه لا يوجد تقابل أو تناظر بين الأنا والآخر، كما لا يمكن أن تكون تضادا ولا علاقة تملك أيضا، فالعلاقة الوحيدة هي اللاعلاقة أو الانفصال أما طرق الاتصال الأخرى فهي أنطولوجية، وتقود إلى اختزال آخرية الآخر" [14].

لذا فأساس علاقة الذات بالآخر تتحدد على أساس أنها علاقة ذاتية غير متناظرة، قائمة على تفرد الآخر فأنا أعامل الآخر بكل تفرده دون أي قانون خارجي ملزم لجميع البشر.

ويؤكد ليفيناس أنه لا يمكن أن تقوم العلاقة بين الذات والآخر على قانون الأخلاق النظرية أو قانون عالمي، ومنه فالأخلاق حسبه ليست ناتجة عن الهيمنة والسيطرة والجبر على الآخر، وإنما هي ناشئة على علاقة اجتماعية بين الذات والآخر.

وبين ليفيناس أن السعي الدائم للإتيقا هو السؤال الدائم على الإنسان، والقلق على الآخر قلق يحملنا مسؤولية أخلاقية تجاهه (الوجه) بخلاف قلق هيدغر، الذي هو قلق من الوجود ومن موت الدازين الذي يختار الموت متفردا يقول ليفيناس "القصد عند هيدغر حول شيء ما حول موضوع معين، وتحديد للحقيقة فهو ليس العلاقة مع الغير وجها لوجه" [15]. وهذا لأن الوجود من أجل الموت هي خاصيته وحده، فموت الآخر حسب ليفيناس ليس وحيدا، ذلك أن موته يتهمني ويضعني موضع تساؤل، وهنا تظهر لنا فلسفة ليفيناس الأخلاقية، إذ تصبح الأنا مسؤولة عن الآخر، وتعمل جاهدة على عدم ترك الآخر يموت وحيدا بمفرده، بناء على مقاومته الأخلاقية التي تمنع القتل والعنف أو ما يحمل العبارة لن تقتل أبدا، ومنه فإن بلوغ الوجه يبدو أخلاقا نظرية دفعة واحدة. فأمام المنظر العاري للوجه يمكن إدراك المعنى وإدراك اللانهائي، ذلك أن مطلب الأخلاق النظرية متماه مع الوجه، وهكذا تتيح سيميولوجيا "الوجه البشري" لليفيناس تجاوز أنطولوجيا هيدغر

أنطولوجيا محرومة من الأخلاق، لأنها نوع من تجسيد لأنانية الدازين وإهمال للغير وخلو من العلاقة الإتيقية مع الآخر، وهنا نلمس تناول ليفيناس لتجربة الموت من منظور إتيقي لا من منظور أنطولوجي، ذلك أن –الموت- يخص بالدرجة الأولى الغير، وواجبنا نحوه هو عدم تركه يموت وحيدا والوقوف معه أمام "سر الموت" وفي هذا يقول ليفيناس "ذلك أنه أمام الموت الظاهر كلغز لا مجرد عدم بالضرورة لن يحدث استغراق لحد عبر حد آخر في النهاية" [16].

الوجه هو الأساس الذي يبني عليه ليفيناس فلسفته الإتيقية، إذ لا يمكن الفصل بين الآخر وبين الوجه ذلك أن "إتيقا الوجه" الذي هو لب فلسفة ليفيناس ولا إتيقا بلا وجه، ولا وجه بلا إتيقا، فالإتيقا تبدأ عند اللقاء بالغير وتحديدا عند استقباله كوجه، فأن تكون إنسانا في السياق الآخر - حسب ليفيناس - يعني أن تكسر سجن النرجسية الخلقية الجامدة، وأن تتحرك في انفتاح تام. وهنا نلاحظ أن ليفيناس تمادى على المركزيات بإثارته لعلاقتنا مع الآخر ووقوفه ضد الأحادية التي أقصت الكثرة و الهو أي الآخرين في الوجود.

كما أكد ليفيناس بأن الآخر ينشأ من حيث علاقته بالآخرين وليس مباشرة من حيث علاقته بعمومية القانون، وهذه العلاقة هي العلاقة الفريدة من نوعها للمسؤولية الأخلاقية، ذلك أن الأخلاق - حسب ليفيناس- هي العلاقة العملية للأنا بالآخر، وهي علاقة سابقة للأنطولوجيا [17].

فالآخر المطلق أو الغير هو تجريد أو عري يتوسلني، إنه لذلك الوجه الذي يأتي إلينا من الخارج يقول ليفيناس "الوجه موجود بنفسه وليس بالرجوع إلى نظام ما" [18].

لهذا نجد بأن ليفيناس ينتقد المباحث الأنطولوجية التي سبقته في أنها غير قادرة على إدراك الغيرية وأبعادها الأخلاقية، وأنها تتعامل معها بظلم وعنف وتهميش واستبداد فتصنفها في صف الغريب.

ويعتقد ليفيناس على أن تجاوز هذا التمركز حول الذات لا يتحقق إلا عبر الحفاظ على الانفصال بين الأنا والآخر، انفصال هو أكثر قربا من القرب، انفصال ميتافيزيقي وليس أنطولوجيا، ذلك أن الميتافيزيقا حسب ليفيناس هي من يمنح معنى للغيرية، لأن الآخر هو أصل المعنى، ومآله الوجه الذي يكشف عن نفسه في مخاطبته لي، وفي التعبير عن ذاته في فقره وضعفه، وفي صرخته بوجه جلاده "لن ترتكب فعل القتل" [19].

إن اللحظة التي يبتدئ فيها الوجه تكون على الفور صرامة وإلزاما إتيقيا، فيتحول فعل القتل إلى فعل مبتذل يحد كل قواي، ومنه تعلو سلطة وجه الغير على سلطتي، صحيح أن فعل القتل اعتيادي ويمكننا قتل الآخر، ولكن النهي عن القتل لا يجعل من القتل مستحيلا ذلك أن الوجه والقول متلازمان، فالوجه يتكلم والكلام الأول هو "لا تقتل" وهي وصية، أي كما لو أن سيدا يأمرني بذلك، فهناك إلزام أخلاقي ينهى عن القتل، فرؤية وجه الآخر في تعاليه ونبله توقد فينا ضمائر الخير، وعليه نلاحظ أن الوجه - حسب ليفيناس- هو من يؤسس الأخلاق، ويقيد قوتي

وعنفي وإمكانية قتلي له، إذ أن العنف والقتل إمكان أنطولوجي أما " اللا تقتل" فهي وصية أخلاقية.

الآخر هو علو، أعلى مني ومع ذلك فهو الفقير واليتيم "أنا الغني وهو الفقير أنا من يجهد ليجد المنابع للاستجابة لندائه" أنا من يقول "ها أنا ذا" في خدمتك استجابة لك ، ومنه كانت "الآخرية" التي تتجسد في الوجه تقدم "المادة" الوحيدة الممكنة للإلغاء الكلي، فلا يمكنني أن أريد قتل إلا كائن مستقل نهائيا، أي الكائن الذي يتجاوز إمكانياتي ويشل إمكان إمكانياتي يقول ليفيناس "الآخر هو الكائن الوحيد الذي يمكنني أن أريد قتله" [20]. فالآخر قد يقول لي "لا" يعرض نفسه لعنفي أنا، ومنه فعلاقتنا وجها لوجه تجعل "فعل القتل" مستحيلا بالرغم من قدرتنا عليه، ويقول ليفيناس " فالآخر الإنساني بما هو آخر ليس أنا أخرى فحسب، هو ما لا يمكن أن أكون أنا، وهو كذلك ليس بخاصية أو هيئة سيكولوجية، وإنما سبب غيريته ذاتها، إنه على سبيل المثال الفقير والأرملة واليتيم في حين أنني الغني والمقتدر"[21] .ذلك أن ملاقاة الإنسان الآخر تسمح لي بأن أكشف وجهه، والوجه هو هوية الكائن، ومن خلال وجه الإنسان الآخر تظهر في آن معا عفوية الكائن وتعاليه، لأن الوجه في عريه كوجه يقدم لي فاقة الفقير والغريب وتعاليه، لأن اللامتناهي تقترب فكرته مني من خلال معنى الوجه، ذلك أن الآخر في فقره ويتمه يشل قدرتي ويجرد إرادتي من سلاحها، لهذا فالآخر هو ما لا نستطيع قتله ،و يؤكد ليفيناس أن العلاقة بالوجه هي على الفور أخلاقية، لأن نظرة الآخر في تعاليه يجرد إرادتي من سلاحها وقوتها، ومنه كانت فكرة اللامتناهي تتحكم في العنف، أي أنها

تؤسس للفلسفة الأخلاقية التي لا تبدأ بحلم الوجود أو الأنطولوجيا، بل تبدأ بعلم الأخلاق، فعندما يقترب مني الإنسان الآخر أتيا إلى لقائي فإنه يناديني ويتوسل إلي إنه يناديني، ويطلب مساعدتي و ينتظر أن أجيبه وعندما أكتشف وجه الآخر أمامي في نبله أصبحت في خدمته، أي مسؤولا عنه، رغم أنني أستطيع التخلي عنه و لا استجيب له، ولكن لا أستطيع ذلك من وجهة نظر إنسانية، ذلك أن الوجه يفرض نفسه علي فلا أستطيع أن أمتنع عن سماع طلبه، أو أن أتجاهله وأنساه أو بالأحرى أن أتخلى عن مسؤوليتي تجاهه. فعلي واجب أن لا أتركه ولا أتخلى عنه، لهذا ينتج ليفيناس أنطولوجيا جديدة تتأسس على الطيبة والمحبة والاعتراف بالآخر، أن تكون هو أن تكون للآخر، أي أن تكون طيبا، ذلك أن الطيبة هي عدم الاهتمام بالذات، باعتبار الآخر أهم من الذات في هذا المنظور لا يحدد لفينانس الفلسفة على أنها "محبة الحكمة" بل على أنها "حكمة المحبة في خدمة المحبة" [22]. فلقاء الذات والآخر وجها لوجه يتطلب واجبا أخلاقيا يفرضه الآخر علي، ذلك أن المقابلة التي تتم بين الوجهين تحمل في طياتها سلاما، ومحبة، وخيراً.

الوجه حسب ليفيناس يدعوني إلى علاقة لا تقاس مع أي إمكان سواء كانت لذة أو معرفة، الوجه يعني لي "علاقة ليست بمقاومة كبيرة جدا، بل مع شيء ما من المطلق الآخر: المقاومة التي ليست بمقاومة لأنها المقاومة الإتيقية".[23].

فالوجه اللانهائي يحضر للوجه على شكل مقاومة إتيقية تمنع كل أشكال المساس به –الآخر- ومنه كان التواصل مع الآخر أمر معياري

يفترض مسبقا أن نعتبر الآخر شخصا وليس شيئا من الأشياء الجامدة إنه شخص يتطلب مني احترامه والاعتراف به والإصغاء إليه، والحوار معه هذا ما سيفرز أساليب سليمة، و سلوكات سليمة وأخلاق سامية بدل العراك والعنف والسفك والقتل، ففي هذا الشكل العقلاني السلس والأخلاقي تتجلى إتيقا الغيرية كما يسميها ليفيناس.

لهذا أكد ليفيناس أن الأخلاق هي فلسفة أولى هي أخلاق الأخلاق مثلما وصفها "دريدا" عند ليفيناس، لأن الأخلاق تشير إلى مستوى ميتافيزيقي لا يمكن للأنطولوجيا بلوغه وهو "الآخرية"، وبالتالي أولوية الأخلاق تقوم حسب ليفيناس على أولوية الآخر يقول ليفيناس "الأخلاق ليست فرعا من الفلسفة وإنما هي الفلسفة الأولى" [24].

الأخلاق ليست شعبة من شعب الفلسفة بل هي الفلسفة الأولى والحقيقة الإنسانية الكبرى، فالأخلاق حسب لفينانس هي وحدها القادرة على تبيان الدلالة الأولى التي أعطت الكينونة الإنسانية معناها هي وحدها القادرة على فهم الحدث الأول، تقوم – الأخلاق - بكونها موجهة أو مقدمة للغير رافضة كل المباحث الأنطولوجية التي سبقته ذلك أنها غير قادرة على إدراك الغيرية وأبعادها الأخلاقية، وأنها تتعامل معها بعنف وتهميش، فالأخلاق التي دعا إليها ليفيناس رافضة لكل ميتافيزيقا خلقية.

وهو ما جعل ليفيناس يرى في العلاقة مع الأخلاق علاقة مؤسسة للأخلاق، فالآخر مصدر الأخلاق وأصل المعنى، ومن هنا استطاع ليفيناس أن يقدم مشروعا مختلفا عن الطريقة التي اعتادت أن تفكر الفلسفة

من خلالها، أي أن لا يكون التفكير في الوجود والمعرفة هما اللذان يقودان التفكير في المسألة الأخلاقية، وإنما الانطلاق من الأخلاق ذاتها كمبدأ أول لكل فعل فلسفي، وكل هذا جعل ليفيناس يعتبر "الإتيقا" بمثابة "فلسفة أولى" ردا على الفلسفة الغربية التي همشت الآخر وسلبت غيريته.

إن العلاقة الأخلاقية إذن بوصفها علاقة تحالفية بين ذوات متناظرة لا مترائية علاقة اجتماعية باعتبارها علاقة أخلاقية عمادها الإحسان والتصدق والتسامح، والخير والمحبة والاعتراف، والاحتفاء بالغير الغريب عنا ذلك أن "الموجود هو الغير، والفلسفة هي طريق الغير إلى الله، إن الغير قبل الذات قبل الأنا قبل التجربة وقبل العالم هو المشروع الأصلي، وكما يقال هو المسلمة المولودة في فلسفة ليفيناس الغير هو الموجود الذي يتظاهر، وعظمة الغير تظهر على الوجه" [25].

إذ تتحدد الهوية الأساس للذات العملية في أنها شخص، وليس لهذه الهوية قيمة إلا بالنسبة للغير (الوجه) ، ومن هنا تتحد هوية الذات بوصفها هوية أخلاقية بما أن الذات توجد تحت رحمة العلاقة مع الغير التي لا يمكن أن تبلغ مبتغاها الأسمى، إلا بوصفها علاقة أخلاقية تتحدد باعتبارها "من أجل الغير".

وبهذا أعاد ليفيناس الاعتبار والأهمية لكثير من المواضيع ذات الصبغة الأخلاقية والبعد الإنساني مثل الصداقة والتسامح والمحبة والطيبة مع الآخر، فأن تكون هو أن تكون للآخر، أي أن تكون طيبا يقول ليفيناس "إن الطيبة تقوم باعتبار الآخر أهم من الذات" [26]. فالآخر

سيتقاسم مع الذات هذا الفضاء الإنساني الرحب، حيث الخير والوئام والأخلاق الطيبة، إذ أن الذات لا تكترث بذاتها قبل اهتمامها بالآخر، ذلك أن الآخر أهم من الذات. إن الولوج للوجه هو فعل أخلاقي حسب ليفيناس، لهذا كانت العلاقة بالوجه على الفور أخلاقية، فالوجه هو الذي يقيد العنف ويؤسس للأخلاق.

لقد أسس ليفيناس فلسفته الأخلاقية على مبادرة الآخر، هذا الآخر الذي أعاد له ليفيناس الاعتبار بعد أن همشته وغيبته الفلسفات السابقة، وبذلك سلك لفينانس مسلك الموجود بدل الوجود، مؤكدا على أن العلاقة بين الأنا والآخر علاقة تسودها المحبة والطيبة والصداقة والسلام والعطاء المستمر، ومنه كانت أولوية الأخلاق عند لفينانس تقوم على أولوية الآخر، و أضاف ليفيناس لعلم الوجود ما ينقصه من لمسات أخلاقية وإنسانية في مناداته بإنسانية الانسان الآخر، لهذا كانت الأخلاق عند ليفيناس بكل بساطة علاقة لقاء بالآخر فأمام الوجه أمر إلى الأخلاق.

فالوجه معيار جوهري للتعرف على الآخر، لا يمكن الحديث عنه أو التعرف عليه إلا بلغة أخلاقية، وعليه كانت العلاقة بالآخر حسب ليفيناس علاقة أخلاقية إنسانية، تقوم على أساس الاقتراب من الآخر والاعتراف بغيريته واحترامه والتحاور معه، والشعور بالمسؤولية ومشاركته بدلا من إقصائه، وهي كلها شروط ضرورية لبناء علاقات إنسانية مع الآخرين، و بالوقوف على تفسيرات لفينانس نجده يتخذ بعدا آخر تميز به عن غيره من الفلاسفة، إذ صاغ فلسفته الخلقية من خلال

الغيرية، فبدلا من اتخاذ العقل أو الأفكار أساسا لفلسفته الخلقية وبدلا من التمييز بين الخير والشر استعاض ليفيناس بعلاقة الغيرية وهنا تعمل الأخلاق على تشكيل بعد آخر لمفهوم الهوية، حيث أن الاعتراف بالآخر في فلسفة ليفيناس يعتبر نقطة الارتكاز الأساسية في فلسفته الأخلاقية، لهذا اتخذت فلسفته معنى مختلف ومغاير عن للأخلاق التقليدية القطعية، التي تهتم بالسلوكات السائدة في مجتمع ما والأخلاق الإتيقية التي تبحث فيما ينبغي أن يكون، لهذا وجب التمييز بين الأخلاق بمعنى الإتيقا وبين الأخلاق بمفهومها العام في تفسير ليفيناس.

ويمكن وصف الأخلاق الليفناسية بأنها حركة تجاه الآخر بدلا من العودة إلى الذات، كما كانت عليها الفلسفات التقليدية وهذه الحركة تصبح أساسا للعدالة الاجتماعية التي لن تتحقق إلا بتحمل الذات مسؤوليتها الكاملة تجاه الآخر الذي يعتبر جزء لا يتجزأ منها [27].

لهذا خاض ليفيناس في خلفية الأخلاق برؤى جديدة تدور محاورها حول التسامح والمحبة والأخوة والخير والاعتراف بالغير، ذلك أن "الغير قبل الذات قبل الأنا، قبل التجربة وقبل العالم هو المشروع الأصلي فهو الموجود الذي يتظاهر، وعظمة الغير تظهر على الوجه" .[28]

3- قيمة الوجه عند ليفيناس

أعطى ليفيناس مكانة مميزة للغيرية وللآخر، هذا الأخير الذي أصبح قضية جوهرية في مباحثه الفلسفية كما ذكرنا سابقا، الوجود كغيرية اللغة كغيرية والآخر كغيرية، كل هذا يعني أن ليفيناس أعطى قيمة كبيرة

للوجه والغيرية التي كانت أساس سابق لكل فعل إذ يقول ليفيناس "إنه مهتم للآخر قبل أي فعل" [29]. وإذ كان ليفيناس يعتبر الحياة في حد ذاتها هي أن تحيا في سبيل غيرك، فالغير ضروري لوجود الأنا، ومن دونه لا قيمة للحياة ولا معنى لها.

ومن غير الأخلاقي إقصاء الآخر وتهميشه وطمس هويته ورده إلى المماثل "الواحد في ذاته" كما في التقليد الغربي، لذا يرفض ليفيناس اختزال الآخر في هوية الشبيه الذي أفقد الإنسان الآخر إنسانيته وطمس هويته الحقيقية، ويدعو إلى ضرورة الحوار مع الآخر، هذا الآخر المغاير والمختلف عني الذي يظهر للأنا كوجه، ذلك أن الإنسان حسب – ليفيناس - هو الكائن الوحيد الذي يمثلك وجها، ويتميز عن الآخرين بوجهه بينما الكائنات الأخرى والأشياء الأخرى ليس لها وجه، ولا يتميز بعضها عن بعض بهذه الخاصية، لأن لها الصفات نفسها، وبالتالي يكون الوجه إنسانا أو لا يكون، ومنه يؤكد ليفيناس الدور الإتيقي للوجه مع العلاقة التناظرية بين الذات والغير، إذ عندما تتوجه الذات نحو ذات أخرى تتشكل العلاقة الإتيقية يقول ليفيناس "لا يمكن للعلاقة بين الأنا والآخر أن تكون عكوسة، لأنه لا يوجد تقابل أو تناظر بين الأنا والآخر، كما لا يمكن أن يكون تضادا، ولا تضادا ولا تحديد فالأنا لا تملك الآخر والآخر لا يحد الأنا، فالعلاقة الوحيدة هي اللاعلاقة أو الانفصال أما طرق الاتصال الأخرى كالفهم والمقابلة والتمثل والمعرفة هذه الطرق كلها أنطولوجية وستقود إلى اختزال آخرية الآخر" [30].

فالوجه يستدعيني إلى علاقة من دون قياس، ذلك أن الآخر الذي يعرض أمام الأنا يعرض فقط كوجه إنساني، والعلاقة التي تجمعهما تكون بين الذوات المنفصلة، أي تكون الأنا غير بعيدة إذ تقترب وتتعرف على نظيرتها دون نظرة اختزالية أو أنانية، بل العكس تماما تمارس آداب الضيافة والكرم، ويؤكد ليفيناس أن تبادل الكلام هو أكثر من تبادل المعارف، لأن هذا الشخص الذي يكلمني لا أفكر فيه كما هو، بل أتحدث إليه فهو مشارك لي في علاقة تجعلني حاضرا دائما وأبدا بالنسبة إليه وتحدث هو إلي، ومن هنا ينشأ الاحترام والاعتراف المتبادل، ذلك أن الحوار القائم بين هذه الأنوات يولد العلاقة الميتافيزيقية (الإتيقية) ومنه يكون الإنسان هو الكائن الوحيد الذي لا يستطيع عندما يلتقي غيره أن لا يعبر له عن سعادته بهذا اللقاء، فأنا حينما أتحدث مع غيري فإن الأمر لا يتعلق بتبادل الكلام معه بل باستدعائه واستضافته.

كما يذهب ليفيناس إلى إعطاء قيمة قصوى للوجه من خلال تحويله للغيرية إلى شرط إمكان إثبات الإنية، لأن الآخر عبر وجهه يظهر للأنا في خارجيته وغرابته وتميزه وعليه "من خلال الوجه يتجلى الآخر للأنا" ، وذلك أن الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يمتلك وجها، ويتجلى وجه الآخر للأنا عبر النظرة، هذه الأخيرة التي تعني عند ليفيناس التحديق والتمعن والابصار، وهذا ما عبر عنه هيدغر "ليس المهم أن نرى بل الأهم أن نبصر فيما نراه" [31].

الوجه هو الطريق التي يحضر الآخر من خلالها، وهو يشير إلى قدم الكائن بالنسبة للكينونة، لا يمكن اختزاله في داخلية الذكرى كما عند

أفلاطون، فالوجه ليس صورة أو شكل كما قلنا مسبقا هو ما يتعدى حدود الصورة هذا التعدي هو التعبير، تعبير عبر القول والنظرة، لذلك اعتبر ليفيناس أن الآخر معلمي، ليس لأنه ذو مقدرة أكبر من مقدرتي وإنما لأن هشاشتة، وبؤسه وضعفه تجعلانه كذلك عندي، الوجه هو من يمكنني قتله لضعفه وهشاشته، لكن رؤية وجه الآخر في نبله وتعاليه توقد فينا ضمائر الخير متمثلة في الوعي باستحالة أو لا إمكانية قتل الآخر، وسبب ذلك واضح هو المقاومة الإتيقية، لأنه في اللحظة التي يتبدى فيها الوجه يكون على الفور صرامة وإلزاما إتيقيا أين يتحول فعل القتل إلى فعل مبتذل يكبح كل قواي وقدراتي، ومنه تعلو سلطة وجه الغير على سلطتي، وعن العبارة الأصلية للوجه يقول ليفيناس أن لكماتها الأولى تبدأ بالمقولة "لن ترتكب فعل القتل" [32].

الوجه حسب ليفيناس إذن هو التعبير الأصلي هو مقيد العنف هو الذي يعيق إرادتي وقدرتي على القتل، هو مؤسس الأخلاق، فهو لا يتحدى ضعف إمكاناتي، وإنما هو إمكان الإمكان ،الوجه يدعوني إلى إقامة علاقة لا تقاس مع أي إمكان أكان لذة أو معرفة، فالوجه حسب ليفيناس يتكلم والكلام الأول هو "لا تقتل"، وهي وصية، أي كما لو أن سيدا يأمرني، ومنه فهو الفقير وأنا الغني، أنا من يجهد نفسي ليساعده ويجد المنابع ويستجيب لندائه، أنا من يقول "ها أنا ذا" استجابة لندائه ذلك أن الوجه في حضوره يجبر الأنا على التخلي عن كل الوسائل المتاحة له. فالآخر حسب ليفيناس يمنح نفسه لكل قدراتي، ويقع تحت حيلي وجرائمي، ويقاوم بكل قواه ومصادره عنفي، لكن نظرته تمنعني من كل

عن عنف وغزو، وهنا يؤكد ليفيناس تشكل علاقة مع مقاومة كبيرة من الآخر المطلق مع المقاومة الإتيقية "المقاومة التي ليست بمقاومة – لأنها المقاومة الإتيقية" [33]. فاللانهائي يحضر للوجه على شكل مقاومة إتيقية تمنع أشكال المساس بالآخر لأن وجه الغير يطلبني ويأمرني ويقصدني وهو ما يجبرني على التخلي عن أنانيتي ووحشيتي، وأستعد لأن أتحمل عبئا كبيرا على كاهلي تجاه الآخر.

والسؤال المطروح هل هذا التصور الفلسفي الذي يطرحه ليفيناس يصدق مع الكل أم مع البعض؟ هل هو تصور خاص بالمجتمعات الغربية في تعاملها مع الاقليات اليهودية أم هو تصور يجب أن يسود كل شعوب العالم؟ هل يجب علينا أن نقيم وزنا لكل وجه أم أن الفلسطيني لا يملك وجها؟ لماذا تخرص هذه الفلسفة أمام اغتيال الآخر المتمثل في الفلسطيني الذي يباد بلا رحمة كل يوم ؟

خلاصة القول أن الأخلاق كميتافيزيقا أولى تستدعي أن تكون أخلاق الغيرية كفلسفة أولى أو فلسفة الفلسفة، وجدواها لا تكون إلا اذا كانت أخلاق تطبيقية واقعية، وهو نفتقده في عالمنا اليوم.

الهوامش

1- جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ج2، ص130،131

2- جون ليشته، خمسون مفكرا أساسيا معاصرا من البنيوية إلى ما بعد الحداثة، ترجمة فاتن السيتاني، ص244

3- زكريا إبراهيم: المشكلة الخلقية، دار مصر للطباعة، مصر، 1966، ص87

4- إيمانويل ليفيناس، الزمان والآخر،ص91

5 - Emmanuel Levinas , Totalité et infini, essai sur l'extériorité, martinus nijhoff, France, 1971, P 63.

6 - Rodolphe calin, David Sebbah , le Vocabulaire de levinas, ellipese, paris, 2002, P 23.

7- جوديث بتلر، الذات تصف نفسها، ترجمة فلاح رحيم، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت لبنان، 2014، ص11

8 - Emmanuel Levinas , totalité et infini, P 329.

9 - Emmanuel Levinas , totalité et infini, P 111.

** التعالي أو التجاوز والتعدي transcendance مفهوم فلسفي يدل على وجود حقائق متعالية وعلى نحو خاص المذهب القائل أن وراء الظواهر الحسية جواهر أو الأشياء بذاتها فتكون الظاهرة تجسيدا لها (أنظر اندري لالاند، الموسوعة الفلسفية ، ج3، ص 1472).

10- Emmanuel Levinas , totalité et infini, P 21.

11- إيمانويل ليفناس، الزمان والآخر، ص08

12- المصدر نفسه ، ص 36

13- المصدر نفسه ، ص 08

14- المصدر نفسه ، ص15

15- المصدر نفسه ، ص 37

16- المصدر نفسه ، ص 38

17- جون ليشته، خمسون مفكرا أساسيا معاصرا من البنيوية إلى ما بعد الحداثة، ص245

18- Emmanuel Levinas , totalité et infini, P 47.

19- ibid , P 217.

20- ibid , P 216.

21- إيمانويل ليفناس، الزمان والآخر، ص 93

22- Emmanuel Levinas ,Autrement qu'être ou au-delà de l'essence, P 253.

23- Emmanuel Levinas , totalité et infini, P 217.

24- ibid , P 336.

25- جويل هنسل، ليفيناس من الموجود إلى الغير، ترجمة علي بوملعة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 2008، ص 136

26 - Emmanuel Levinas ,totalité et infini, P 277.

27- هاشم الميلاني، الاستغراب، دورية فكرية تعنى بدراسة الغرب وفهمه معرفيا ونقديا، العدد العاشر، بيروت، 2018، ص 238.

28- جويل هنسل، ليفيناس من الموجود إلى الغير، ص 136

29- نقلا عن، جون لشته، خمسون مفكرا أساسيا معاصرا من البنيوية إلى ما بعد الحداثة ص 241

30- إيمانويل ليفيناس، الزمان والآخر، ص 15

31- نقلا عن، هاشم الميلاني مجلة الاستغراب، ص 295

32- Emmanuel Levinas , totalité et infini, P 217.

33- ibid , P 217.

خامسا/ أخلاق المسؤولية عند ليفيناس

" إن الذات مطالبة بالمسؤولية من قبل الآخر

غير أن المبادرة بالأمر تعود إلى الآخر أين

تكون الذات بصيغة المفعول به لا الفاعل "

بول ريكور

خامسا/ أخلاق المسؤولية عند ليفيناس

تطور الفكر الأخلاقي في الفلسفة الغربية المعاصرة ليتوج بميلاد أخلاق الغيرية التي جعل منها ليفيناس فلسفة أولى ، و التي بدورها مهدت لظهور أخلاق المسؤولية عند ليفيناس، هذه الأخلاق تقوم على احترام الآخر، و يعتقد لفينانس أن الفكر الأخلاقي يفقد معنى وجوده في غياب الغير، فأنا أمارس الأخلاق من أجل الآخر، و هذا ما يدعو إلى الإقبال على الحياة، والحفاظ عليها من أجل الأنا والغير، وهذه الفلسفة جديرة بالاهتمام و التطبيق على أرض الواقع لتحقيق السلام الدائم، لذا يمكن الفصل بالقول بأن أخلاق المسؤولية هي الأخلاق التي تؤسس إلى الكونية التي يحترم فيها الإنسان بعيدا عن إيديولوجيته وعرقه، لكن الملاحظ أن ليفيناس لم يجعل من أخلاق المسؤولية فلسفة أولى كما فعل مع أخلاق الغيرية رغم أنه ينادي بها .فما السر وراء هذا؟ هذا ما سنعرفه في العناصر المتبقية من هذا الكتاب.

1.المسؤولية الأخلاقية تجاه الآخر عند ليفيناس

المسؤولية علاقة أخلاقية تقوم بها الذات من أجل الآخر ، فما يفي السمة الأخلاقية على الوجود الإنساني هي المسؤولية تجاه الإنسان الآخر، هذه المسؤولية التي تعطي معنى ودلالة وعظمة للوجود البشري فعندما نكشف وجه الآخر، لا يمكننا التغاضي عنه أو تجاهله إنسانيا وأخلاقيا، فعندما يناديني الآخر و يتوسل إلي فإنه ينادي مسؤوليتي، فهي اللحظة التي تتحد فيها الذات مع الغير يقول ليفيناس " الوجه يعني لي

المسؤولية لا يمكنني الاعتراض عليها، فهي مسؤولية سابقة على كل اتفاق و عقد" [1]. فعندما نكشف وجه الآخر لا يمكننا الاعتراض و التغاضي عنه أو تجاهله، فالوجه يفرض ذاته علي، ذلك أن توسله وندائه لي فيه نداء لمسؤوليتي فلا يمكنني الامتناع عن تلبية ندائه و الاستجابة لطلبه أو تهميشه، ولا يجب أن أتخلى عنه، إنها مسؤولية أمام بؤسه وفقره وضعفه ومنه كانت مسؤوليتي تجاه الآخر تفرض ذاتها علي مهما كان موقف الآخر مني، يجب أن أذهب إلى الآخر دون أن انتظر منه توجهه نحوي فوجه الآخر يولد بداخلي إلزامية أخلاقية تتجلى في أن أكون دائما موجود وحاضر في خدمة الآخر و من أجله .

فقد خضعت الذات مع ليفيناس إلى تحول، إذ تم تحويل حريتها إلى مسؤولية بل تم تعويض الحية بالمسؤولية، و بدلا من الحرية فواجبي عند لقاء الآخر هو عدم التهرب أو التنصل من مسؤوليتي تجاهه، فعند ليفيناس يحيا الفرد من أجل الآخر، وحين يواجهني الآخر أي يكون وجهه مقابلا لوجهي فإنه يلزمني إلزاما أخلاقيا تجاهه، وأمام الوجه أطالب نفسي دائما بالمزيد من المسؤولية تجاه الغير، والآخر هو الضعيف والفقير و الأرملة وهم جميعا بحاجة إلى مساعدتي، أنا من يقول له ها أنا ذا في خدمتك دائما لا لشيء سوى لأنه الآخر الإنساني ، والوجه حسب ليفيناس حامل للإنسانية التي نحن محكومين بها حتى الانشغال بالآخر والقلق عليه مرادف لما هو إنساني، وما هو إنساني يحيلني إلى أن انشغل بحماية الآخر و إنقاذه من الموت قبل الانشغال بالذات .

إن العلاقة مع الوجه المختلف عن الأنا تلزمنا اتجاهه ارتباطات إيتيقية تتجسد في المسؤولية، وهذه المسؤولية تجاه الآخر تختلف عن باقي المسؤوليات الأخرى، إنها مسؤولية من نوع خاص مسؤولية حتى على المسؤولية ذاتها، فوجه الآخر وخطابه دائما يحملان معنى كبير يجبرني ويلزمني أن أكون مسؤول عن الآخر ليس باعتباره عزيز وإنما باعتباره قريب يقول ليفيناس " هذه الحالة هي العلاقة مع الآخر الإنساني وجها لوجه مع الآخر : لقاء وجهه يعطي ويواري الآخر في الآن نفسه الآخر المصطلح به هو الآخر الإنساني "[2].

إن مسؤولية الفرد عن الآخر الكبير لا أصل لها إلا في ذاتها، إذ لا يفرضها أي قانون أو عرف أو مجموعة من القيم، فهي سابقة عن كل هذا، فما هي إلا أمر راق غير معروف يتردد صداه من مصدر لا نعرفه من عمق أعماقنا، ويجب علينا الإنصات إليه دون معرفة السبب، فليفيناس يعتقد أن الوجه يسبق كل خطاب أخلاقي أو سياسي، ورغم أنه يطرح هذه القضايا أمامنا فيجب ألا تنحرف كثيرا عن أصلها في المواجهة المباشرة، فالنظام الرمزي باختصار أساسه في النظام الواقعي، والبعد الأخلاقي هو نموذج ليفيناس، نموذج تتمتع فيه العلاقة مع الآخر بكل سمات القوة الصادمة و التجرد من والاستبداد و من التاريخ والفردانية. فالآخر الكبير عند ليفيناس كشف لا يمكن توقعه، ينتهك بعنف حدود المعروف والممكن معرفته، وهو من خلال ذلك يؤسس لنوع جديد من الحقيقة في منطقة بعيدة عن المعرفة العامية السطحية، فإن كان

النظام الواقعي يتضمن أيضا مناغمة الموت فإن مبالغات المخاطرة والكشف الذاتي هذه موجودة عند ليفيناس في صورة نكران الذات من أجل الآخر، نكران يتجسد بتحمل المسؤولية تجاه الغير دون النظر الى ردود أفعاله.

الوجه حسب ليفيناس يفرض ذاته علي، فلا استطيع أن امتنع عن سماع ندائه أو أن أتجاهله وأنساه وأدير له الظهر أو أتخلى عن مسؤوليتي تجاهه ، لأنه عندما اكتشف وجه الآخر أصبح مسؤولا عنه لا محالة، صحيح أنني استطيع أن أتوارى عنه، لكنني لا استطيع فعل ذلك من وجهة نظر إنسانية فألانا حارسة لأخيها الآخر، لأننا مسؤولون عنه وهذا ما يفرضه علي خطاب الوجه، لأن وجه الغير يطلبني و يأمرني، و هو دائما يقصدني مما يجبرني على الاستعداد دائما لأتحمل عبئا كبيرا تجاه الغير، وهنا سيتخلى المرء حتما عن نرجسيته وأنانيته وعنفه تجاه الآخر يقول ليفيناس " أن أكون أنا ذلك يعني دعم القدرة على التهرب من المسؤولية ... لأن المسؤولية التي تفرغ الأنا من استقلاليتها ومن أنانيها إنما هي تؤكد وحدة الأنا، من هنا لا أحد يستطيع أن يجيب مكاني "[3] فالإنسان لا يحقق ذاته إلا إذا أصبح مسؤولا عن الآخر، فهوية الأنا لا تظهر إلا من خلال تحمل المسؤولية، ومنه نستنتج أن ما يؤسس هيكلة الإنسان إنما هي المسؤولية تجاه الإنسان الآخر، هذه المسؤولية هي التي تعطي عظمة للوجود البشري، إن مسؤوليتي تجاه الآخر تفرض ذاتها علي مهما كان موقف الآخر مني .

إن عظمة الغير ومحبتي له تجبراني على أن أكون جاهزا وحاضرا وموجودا من أجل الغير، ومنه فإنني مسؤول تمام المسؤولية عن معنى حياته وهذه تعابير من أجل الإفصاح بلغة وصفية عما أدركه عندما يتجلى الغير أمامي، إن الوجه الخلقي لهذا اللقاء يأمرني ويقتضي أن أكون في مستوى طموحه[4] .الوجه يأمرني ويلزمني أن أكون في خدمته أن ألبي النداء أن أقول له ها أنا ذا .

لقد صاغ ليفيناس ماهية الغير ومواجهة الذات بلغة إيتيقية فحين يحاورني الآخر ستتولد بداخلي التزامات أخلاقية تلزمني أن أكون دائما موجودا وفي الخدمة من أجله حتى في لحظات الاحتضار، فالاقتراب والتآزر هو إكمال للنقص الذي تعاني منه الذات، وعدم التساوي في المقدرة تعوض عنه مشاركة حقيقة في التبادل، هذه المشاركة التي تلجأ في ساعة الاحتضار إلى الهمس المتبادل للأصوات أو إلى التشابك الطويل لليدين وشد كل يد على الأخرى[5].

في الوجه عظمة تجبرني على ضرورة أن أكون جاهزا وفي الخدمة من أجله، أنا من يخطو الخطوات من أجله، فالمسؤولية يجب أن تكون قناعة و إلزام و غير قابلة للتحويل و التنازل عن الآخر، ويجب أن يكون اعتقادي كما لو أني وحدي و لا أحد سواي، كما لو كنت أنا الوحيد المعني بهذه المسؤولية، ويكمن فعل الكينونة في عدم التهرب أو التبرؤ من مسؤولية الكائن تجاه غيره، كما لو أن الأنا في اهتمامها بالآخر ومسؤوليتها تجاهه بمثابة أنها مكرسة الأنا لخدمة الآخر فقط دون أن

تنتظر المقابل منه، فمن غير الأخلاقي عدم خدمة الآخر وعدم الاهتمام به.

يؤكد ليفيناس على أن حضور الآخر أمامي يزعجني ويقلق راحتي ورفاهيتي ويجعلني أخرج من عزلتي، فعندما ألتقي الآخر أعرض ذاتي أمامه أخاطر وأعرض نفسي للإحراج و الإهانة يقول ليفيناس " فالواحد يتعرض للآخر...كما يعرض الخد لمن يريد لطمه"[6] . لأن المجازفة والمخاطرة من أجل حياة الآخر أساس عظمة الوجود البشري، إنها خطوة للخروج من الانغلاق إلى الانفتاح من الأنانية إلى الاتصال والاعتراف. فالقلق من الآخر ولأجله هو قلق صحي وليس مرضي وهي تضحية وليست تبديد للطاقة والحرية.

إن أخلاق المسؤولية تمنعني من اختزال الغير لدرجة يمكننا القول فيها حسب لفينانس أنه حتى الآخر الذي يعاملني بوحشية له وجه فالآخر الذي يضطهد يخاطبني و يرفض الاختزال والاستبدال، وهكذا فإن المسؤولية لا تنشأ مع الأنا، ومن يتحمل مسؤولية معاناة الآخرين في النهاية إن لم يكن الكائن الذي يقول أنا الخاضع للتأثير [7] . فالأنا مكرسة لأجل الآخر ومن أجل تحقيق راحته وسعادته، بمعنى أن الأنا مسخرة لتمنح نفسها للآخر، فهي تعاني وتعطي للآخر، وبين لفينانس أن المسؤولية تجاه الغير هي سلبية أكثر من أية سلبية أخرى[8] .وليست السلبية هنا بمعنى فعل سيئ، وإنما ترفضها النفس، لأن من طبيعة النفس رفض التضحية فهي تميل إلى الأنانية.

في الواقع أن المسؤولية تعكس استعداد الذات لتلبية المطلب الأخلاقي، لهذا كانت العلاقة الأخلاقية علاقة انسجامية بين ذوات متناظرة لا متوافقة، وتقوم على المسؤولية التي هي اعلى مراتب الإحسان. ومنه لن تكون بالضرورة إلا كما حددها لفينانس، فهي مسؤولية لا محدودة ، وتقوم فيها النفس بواجبها تجاه الغير بمحض حريتها [9]. بهذا المعنى تكون المسؤولية علاقة من أجل الغير قبل الرغبة والاختيار، وهذا ما يريد قوله، فالحرية تفقد معناها ما لم تتحول إلى مسؤولية، ووفقها تتأسس أخلاقنا، ووفقها تحدد علاقتنا مع الغير، وبها نحقق احترامنا لذواتنا و للآخرين.

هكذا يؤسس ليفيناس انطولوجيا جديدة لا تتأسس على معرفة الذات بل على الطيبة إزاء الآخر وأن تكون هو أن تكون للآخر، أي أن تكون طيب فبالطيبة يصبح الإنسان فاعل سلام، ذلك أن تحمل مسؤولية الذات أمام الغير تحمل دلالات المحبة والسلام هي مناداة اللاعنف ، ورفض الأنانية يقول ليفيناس "على السلام أن يكون سلامي أنا . بعلاقة تتطلب من الذات نحو الآخر بالرغبة والطيبة حيث الأنا تقوم وتستمر بدون أنانية" [10]. فالطيبة تعني عدم الاهتمام بالذات باعتبار أن الغير أهم من الذات . من هذا الاهتمام تتعالى فكرة المتناهي فوق كل معرفة، فهي حاجة تتجسد في علاقتنا بالغير في محبتنا وخوفنا عليه، ونتيجة ذلك التأثير حسب ليفيناس هو الحب، ومنه يتبين أن المسؤولية تتبلور من خلال الحب المجرد، ووجود الآخر أمامي هو إنكار لكوني أنا مركز كل شيء، ودعوة في الوقت نفسه الى الخروج من الذاتي

والعيش مع الأخر، ومنه فإن ليفيناس يرمي إلى وضع مستقبل الآخر كمسؤولية تتحملها الذات، ويؤكد ليفيناس أننا قبل أن نلتقي الشخص الآخر غلى صعيد المعرفة فإننا مثقلون بفعل المسؤولية والاحترام لدعم الآخر .فالمسؤولية عن الآخر تسبق مهمة الآخر، لذلك يأتي اللقاء الأخلاقي قبل الحديث المعرفي، ولهذا إذا أرادنا أن ننفتح على الآخر وجب علينا تقبله، ذلك أن الحوار حسب ليفيناس موجه نحو مفهوم الآخر وليس عن طريق المعرفة والعقل، لأن الذات هي خادمة الآخر .

يبدو أن ليفيناس يطلب من الطيب تحمل مسؤوليته تجاه الخبيث ولا ينظر الى سلوكه، و لو اسقطنا هذا واقعيا فإنه يقول لنا احترموا اليهود ولا تنظروا للعنف الصادر عنهم، تحملوا مسؤولياتكم تجاههم ولا تنتظروا منهم أي شيء، فعلا هي أخلاق تخدم فقط مصلحة اليهود واليهود هم وحدهم المستفيد من أخلاق كهذه، لأنهم يدوسون على الآخر ولا يقيمون وزنا للغير، فإن بادلهم الآخر المضطهد وقابلهم بأخلاق المسؤولية فلا ريب أنهم سيكونون في غاية السعادة ، لقد صرح كانط أن شعار لا تكذب لا يجب أن يقتصر على بعض الناس، بل يجب أن يلتزم به الناس قاطبة حتى تكون هناك عدالة، و نحن نقول أخلاق المسؤولية يجب ان يتبناها القوي قبل الضعيف، السيد قبل العبد، الحاكم قبل المحكوم ، و إلا فستكون أخلاق عبثية ظالمة.

3 .المسؤولية التماثلية و اللامتناهية

خضعت الذات مع ليفيناس كما قلنا مسبقا إلى تحويل يتمثل في ربط حقيقة الذات بالمسؤولية ، ويحيلنا مبدأ المسؤولية تجاه الغير إلى مفهوم جوهري ومركزي ألا وهو مفهوم الوجه، فالوجه عندي هو ما يحدد هوية الذات، وهو الذي يجسد المسؤولية، ذلك أن النظر في وجه الآخر، وليس في عينيه هو أساس شعورنا بالمسؤولية تجاه الوجه العاري و المعرض للعنف خاصة القتل يقول ليفيناس " الوجه لا تنتهك حرمته هاتان العينان اللتان لا حماية لهما على الإطلاق أكثر أجزاء الحسد الإنساني عريا ، تقدمان بالرغم من ذلك مقاومة مطلقة التملك، مقاومة مطلقة منقوش عليها غواية القتل ... الآخر هو الكائن الوحيد الذي يمكن للمرء أن شعر بدوافع لقتله، أن ترى وجها هو أن تسمع بالفعل قول " لا تقتل" و أن تسمع " لا تقتل" "يعني أن تسمع الاجتماعية " [11]. لذلك فالوجه مانع هائل ضد العدوان – القتل – هو مقيد العنف ومؤسس الأخلاق، لأن الوجه يفرض ذاته علي مما يكبح إرادتي ويجردني من السلاح رغم قدرتي على القتل، وهنا تتجلى مسؤوليتي تجاه الآخر .

الوجه حسب ليفيناس منذ البداية هو الالتماس، وأنه ضعف من هو بحاجة إليك، و يعتمد عليك، وهنا منشأ فكرة اللاتماثل، فاللاتماثل لا يعني أن هناك ذاتا تواجه موضوعا إنه على العكس، يعني أنني قوي وأنك ضعيف يعني أنني العبد وأنك السيد، يعتقد ليفيناس أن وصية " لا تقتل" تمثل منعرجا في علاقتنا بوجه الآخر، حيث تفرض علي نوعا من

المسؤولية أمام الغير، مسؤولية تمنعني من التهرب من المسؤولية تجاهه مسؤولية تفرض بل تحرم تجاهل الآخر، مسؤولية تمنعني من منع أذني عن سماع نداء الآخر، أنا من يعرض نفسي للخطر من أجل سلام الآخر دون أن انتظر المقابل منه، فالمسؤولية الأخلاقية تجاه الآخر تفرض ذاتها علي مهما كان موقف الآخر مني، والعلاقة مع الغير ليست تماثلية لأنني مسؤول عن الآخر من دون أي مقابل، حتى لو كلفني ذلك حياتي يقول ليفيناس" إنها ذاتية مضافة للآخر ... إنها أصلية من نفسي لا يتقايس مع ما بوسعي طلبه من الآخر، أنتظر من نفسي أكثر مما أنتظر من الآخر "[12] فأساس المسؤولية أنها ليست تماثلية و لا تناظرية بين الأنا و الآخر، فالأنا دائما له مسؤولية أكثر من غيره، وكأنها مسؤولية تجاه الإنسانية كلها فالأصح هو مطالبة الأنا أكثر مما نطالب به الآخر " فمسؤوليتي غير قابلة للتنازل عنها، ولا تشخص بإمكانية تعويض "[13]

فلا أجد بإمكانية أن يأخذ مكان الأنا، هنا تظهر الفردانية الايجابية في تحمل المسؤولية وليس الفردانية السلبية التي تعني العزلة و الأنانية تجاه الأخر، هذا النوع من المسؤولية كفيل بتنقية و تطهير الأنا من نرجسيتها وعنفها كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس، فليس هناك تبادل في المسؤوليات، فالمسؤولية تكون كاختلاف لا كتماثل، و كوحدة وهي انفصال لا اتحاد، وهذا يعني" استحالة تضمين الأنا و الآخر ضمن كلية واحدة"[14]. و منه استحالة أن أتحدث عن نفسي وعن الآخر بالمعنى نفسه، هذا التناظر يعود إلى علو الآخر، وهذا لا يعني أن الآخر ذو مقدرة تفوق قدرتي على العكس فالآخر هو اليتيم والأرملة يقول

ليفيناس" هو الضعيف و الفقير و الأرملة و اليتيم في حين أنني الغني والمقتدر، ومنه فإن الفضاء الما بين ذاتي ليس متناظرا "[15] . وعليه فأنا المسؤول عن الآخر، أنا من يقول له أنا في الخدمة يا سيدي، لذا لا يمكن للعلاقة بين الأنا و الآخر أن تكون عكوسة، لأنه لا يوجد تقابل أو تناظر بين الأنا والآخر يقول ليفيناس "العلاقة الوحيدة هي اللاعلاقة أو الانفصال أما طرق الاتصال الأخرى جميعها كالتمثل و المعرفة و الفهم والمقابلة كلها أنطولوجية، وستقود إلى اختزال آخرية الآخر "[16] . إن المقابلة التي تتم بين الوجهين الأنا والأخر وجها لوجه يتطلب واجبا أخلاقيا و تضحية و مسؤولية يفرضها الأخر علي، وهذا اللقاء يتميز عن باقي طرق الاتصال الأخرى يقول ليفيناس " إن الوجه الذي يستدعيني ويوجهني ويدعوني إلى حمل مسؤولية لا متناهية تجاه الآخر هو وجه عار و مجرد و ملامحه مكشوفة و لا يخفي أي سر ورائه فهو موجود خارج عالم الظواهر، وكل ما فيه قد ظهر منه، يضع الوجه الذات في علاقة تناظر موازية للآخر ... إن الوجه ليلمع داخل أثر الآخر " [17]. وبهذا المعنى يمكن أن نستنتج أن المسؤولية عند ليفيناس لا متناهية، مسؤولية غير مشروطة فأنا مسؤول عن الآخر من دون مقابل حتى لو كلفني ذلك حياتي.

يعتقد ليفيناس في هذه المسؤولية المشروطة أن الآخر أهم من الذات وله الأولوية على الذات، فكل واحد منا هو حارس لأخيه الآخر إلى حد ذهب فيه الفيلسوف الفرنسي المعاصر بول ريكور الذي اعتبر أن كل فلسفة ليفيناس تتمركز حول بنذاتية تتسم بالمبادرة في الاتجاه نحو

الآخر وإقامة علاقة معه يقول بول ريكور " إن الذات مطالبة بالمسؤولية من قبل الآخر غير أن المبادرة بالأمر تعود إلى الآخر أين تكون الذات بصيغة المفعول به لا الفاعل " [18] . فالمسؤولية دوما في اتجاه واحد إنها تأتي من الآخر و تستقر في الذات دون أن تستأذن مني، ودون أن اختارها، لكنها تنادي الأنا لخدمة الآخر، أنا دائما أملك مسؤولية أكثر من الآخر لأني مسؤول عن مسؤوليته بحيث لا أستطيع أن أتركه وحيدا وعاريا إنني في خدمة الآخر.

إن ليفيناس يدعو للحاجة إلى المسئولية اللامتناهية، و نشير هنا إلى أن كانط يعتبر أيضا من كبار فلاسفة التناهي الإنساني المحدثين والداعية لعقل بعيد المنال على نحوٍ متعال، ويؤكد ليفيناس أن المسؤولية ليست فقط مسؤولية تجاه الأخر، لكن أيضا من أجل الآخر وهذا يؤدي إلى أنه يمكنني أن أحل محل مسؤوليته ، ولا أحد يستطيع أن يحل محلي ليتحمل مسؤوليتي فأنا مسؤول عن الآخر ، مسؤول حتى عن مسؤوليته [19]. وهذا ما يعرف بأخلاق الأخلاق ، فأن أكون أنا حسب ليفيناس معناه أنني أتحمل مسؤولية الآخر، أكثر من نفسه، فذاتي مهتمة بحراسته والمحافظة عليه بدرجة تجعلها تستعيض عن موت الآخر بموت الذات، ومنه كانت الأنا جواب عن نداء سابق لها، فالأنا مرتهنة بالآخر ورهينة له .

ولا يمكن لأحد أن يجيب عوضا عنها، إنه شكل من الانهماك بالغير وبالتالي كان الوجه عند ليفيناس أساسا للمسؤولية، فعند حضور الوجه

نرى كأنما الإنسانية كلها مصوبة تجاه الأنا، وبقي الآخر الكائن الوحيد الذي يجب أن لا أتركه وحيدا، هذا الفقير الضعيف إنه الأخ الذي يستحيل عليا تركه وحيدا، هنا تظهر المعاني السامية التي ترتقي بالوجود البشري إلى أعلى المراتب، فمسؤوليتي تجاه الآخر تعني محبتي للآخر وخوفي عليه، لهذا كانت المقابلة بين الوجهين سلاما ومحبة وخيرا لهذا كان وجه الآخر حسب ليفيناس" سيد العدالة " يقول بول ريكور "أستاذ يلقن ولا يلقن إلا بالصيغة الأخلاقية إنه يمنع القتل ويطالب بالعدل "[20]. فالمسؤولية إذن حسب ليفيناس ليست مسؤولية بالمعنى القانوني أنا مسؤول عن أفعالي وإنما بالمعنى الإتيقي، أنا مسؤول تجاه الآخر" دون أن أنتظر منه أن يكون مسؤولا تجاهي، وهذه المسؤولية دون قيود لدرجة يجب علي أن أشعر فيها بأني "مسؤول عن المسؤولية " كما يقول ليفيناس، وحسب قراءة بول ريكور لليفيناس فإنه يرى أن " الذات مطالبة بالمسؤولية، وأن الذي يطالبها بل وحتى يأمرها بتحمل المسؤولية هو الآخر، فالآخر يطلب والذات تستجيب، لهذا الأمر أو الطلب أو النداء طبعا الذات أيضا مطالبة بالمسؤولية من قبل الآخر ، غير أن المبادرة بالأمر تعود إلى الآخر، وبالتالي فإن الذات تكون بصيغة المفعول به لا الفاعل حين يبلغها الأمر، والإلزام بالمسؤولية ليس له من مقابل سوى أنا مستدعاة "[21]. هذه المسؤولية الكلية الشاملة بالقول أن مصيره هو مصيري، لكن العكس ليس صحيحا، لأن لي مسؤولية أكبر وأعمق من الآخر، بحيث يحرم علي تركه وحيدا عاريا، إنني في خدمة الآخر دائما

وأبدا. فالذات لا تقوم لها قائمة من دون احترام للآخر ضمن تبادلات يغمرها الحب و التعاطف والاهتمام و التعاون .

ويمكن وصف الأخلاق و المسؤولية الليفيناسية بأنها حركة تجاه الآخر بدلا من العودة إلى الذات، وهذه الحركة تصبح أساسا للعدالة الاجتماعية يقول ليفيناس " فنظرا لأن الآخر ينظر لي فأنا مسؤول عنه في من دون أن أتخذ في هذا العدد مسؤوليتي عنه بعد، مسؤوليته تقع على عاتقي ... بمعنى أنني مسؤول عنه مسؤولية كاملة " [22] . فالعدالة حسبه لا تتحقق إلا بتحمل الذات مسؤوليتها الكاملة عند الآخر، دون أن تنتظر منه رد الجميل (المقابل) فالمسؤولية جوهر الإتيقا عنده .

4. إتيقا الموت وعلاقتها بأخلاق المسؤولية

أكد ليفيناس أن أساس المسؤولية منبعث من شعور الخشية على الآخر من عنف الموت ، ومن غيابه ورحيله وفقدانه يقول ليفيناس " فالخوف من أن يموت الآخر هو بالتأكيد أساس المسؤولية عن الآخر "[23].

فعندما أصبح مسؤولا عن الآخر أصبح مسؤولا عن موته ، فالخوف من موته الآخر يتقدم على خوفي على ذاتي فالغير أهم من ذاتي .

إن الإنسان يعطي معنى لحياته عندما يختار خطر الموت في سبيل ألا يقتل الأخر يعطي الإنسان معنى لحياته، لا يمكن للموت أن يمحوه يقول ليفيناس " الخوف على موت الآخر يتقدم على خوفي على ذاتي ...وأن يعيش في سبيل الآخر، أي أن يضع نفسه في تساؤل، وأن تخاف من القتل أكثر مما يخاف من الموت " [24].

فالموت الذي يتحدث عنه ليفيناس ليس الموت الطبيعي الهادئ وإنما الموت الذي يأتي نتيجة فعل القتل العنيف، لذلك يقيم تمييز بين فعل القتل و ألم الموت، فقد نختار خطر الموت في سبيل ألا يقتل الآخر .

فعندما اكتشف وجه الآخر في تعرضه للموت وأخاف عليه وعلى موته – قتله – دلالة على مسؤوليتي تجاهه، ودلالة على حبي وخوفي عليه أكثر من خوفي على نفسي، فالمسؤولية الإتيقية تجعلني دائما أنبذ كل أشكال العنف ضد الآخر، فالأنا تملكها مخاوف كبيرة على الغير، مما يولد بداخلي شعور بمدى حاجة الآخر لي، والشعور بإنسانيته قبل الموت، وأن أكون بجواره وفي خدمته دائما، ذلك فإن القتل أو العنف يلغي الحق في الاعتراف بأحقية الآخر في الحياة ، ومنه فالإنسان يحوي بداخله مسؤوليات كبيرة تجاه الآخر تلزمه بعدد من الواجبات تجاهه تتصدرها المحافظة على حياته . إن الظهور المقدس للوجه يدعو الأنا إلى عدم ترك الآخر وحيدا أمام خطر الموت، ذلك أن الذات تجد نفسها كما يقول ليفيناس "مرتبطة و مثقلة و نوعا ما سلبية، بهذا المعنى يضع الموت حدا للمثالية" [25]. فالموت يدل على المعاناة وهو لا يعني عند ليفيناس الغياب عن الحياة فقط بل هو سفر نحو المجهول بلا عودة، إنه علاقة مع الغير يقول ليفيناس " ففي ظاهرة الموت تجد العزلة نفسها أمام لغز لا ينبغي فهمه بطريقة سلبية" [26]. هذه الفكرة ستسمح لنا بادراك رابطة داخل الذات لا يمكن اختزالها له، ومجرد عودة للعزلة، ذلك أنه أمام الموت الظاهر كلغز ستظهر الثنائية التي تفصح عن ذاتها ففي الموت علاقة مع الآخر .

الموت سلب الأنا فإذا كان هو موجودا تكون الأنا غائبة يقول ليفيناس " عندما يكون الموت هنا ، أكف أنا عن كوني هنا لأني أصبح عدما. بل لأنني لم أعد قادرا على الإمساك به ، تمكني ورجولتي وبطولتي كذات ما عادت كذلك أمام الموت " [27] . فالعلاقة بالغير تدل على خطورة الموقف وتحدثنا على ضرورة تحمل المسؤولية تجاه الأخر، وضرورة تخليصه من معاناته أي أن أكون بجواره دائما، فهذا هو حدث الوجود بعينه حسب ليفيناس، ويذهب ليفيناس في نقده للموقف الهيدغري إلى أن تجربة الضيق أو القلق ليست هي التجربة المتميزة للكائن من أجل الموت كما عند هيدغر [28].

لكن ليفيناس يؤكد أن الوجود يبدو بمثابة قلق، الوجود بمثابة وجود في العالم بمثابة وجود مع الآخرين، بمثابة توجه نحو الموت، الوجه هو ما لا نستطيع قتله أو هو على الأقل يوحي و يتكلم بعدم القتل الوجه يمنعنا من القتل ، تكون الأنا ملزمة بالتقيد بهذه الأوامر، فموت الآخر يعنيني أكثر مما يعنيه، فالمسؤولية الملقاة على عاتقي لأتحملها من أجل أخ وقريب كبيرة جدا يقول ليفيناس " إن موت الأخر يتهمني ويضعني موضع تساؤل، وكأن الأنا أصبحت بفعل هذا الموت متواطئا بلا مبالاة ومطالبة بتحمل مسؤولية موت الآخر وعدم تركه يموت وحيدا " [29].

أمام لغز الموت الذي هو قمة المسؤولية، لأن عبارة و قاعدة لا تقتل ليست قاعدة للسلوك الإنساني بل هي مبدأ للحياة الروحية و الخطاب العام للإنسانية .

إن المسؤولية تجاه الأخر تعني استحالة ترك هذا الإنسان وحيدا أمام الموت، ولكي تصبح الذات مسؤولة لا تستطيع أن تصبح قادرة على الهروب من هذه المسؤولية يقول ليفيناس "المسؤولية الأخلاقية لا تنشأ بين شخص من هذا النوع و شخص من هذا النوع، ولكن المسؤولية تنشأ كلما واجهت الذات أي إنسان وقبل التفكير في معرفة ما يجب علي القيام به ... فالأخر من خلال فقره وعريه يفرض نفسه علي، ويناشدني من خلال جوعه من خلال ضعفه من خلال موته يناديني ... لهذا فإن رؤية الذات للآخر الفقير و الضعيف تجعل الذات تفكر أولا و قبل أي شيء ما الذي يمكنني القيام به من أجل الآخر من أجل خدمته، فالعطاء الملموس والعمل من أجل خدمة الأخر و القلق و الخوف من موته والجهد المبذول من أجل إنقاذه و مساعدته، هذا الالتزام الأخلاقي تجاه الأم المهمش و الضعيف و المهمل و الغريب اليتيم و الأرملة " [30].فالوجه يوجه لي مسؤولية لا يمكن الاعتراض عنها و تجاهلها ، فأنا من يفتح للآخر الأبواب و النوافذ أنا من استقبل الآخر و أستضيفه وأرحب به .

تبدو نظرة ليفيناس للآخر نظرة محبة و سلام و إخاء، لكن رغم ذلك وقع ليفيناس في فخ قتل الآخر، الآخر الذي جعل منه طفلا بريئا يحتاج إلى رعاية دون مقابل، و هذه الأخلاق قد تؤدي إلى تهاون الآخر واستكانته و اتكاليته و ادخار جهده و مضيه إلى الكسل تماما كما حدث مع أخلاق الاشتراكية.

إن أخلاق المسؤولية عند ليفيناس ترتبط ارتباطا وثيقا بأخلاق الغيرية القائمة على حب الآخر و تمجيده بعيدا عن كل مقابل، وهي

فلسفة قائمة على تبني فكرة المسؤولية، هذه الفلسفة تتخذ من المسؤولية أساسا لحب الآخر، فالمعنى الحقيقي لتحملي مسؤوليتي اتجاهك، هو أنني أحبك و إنسانيتي مستمدة من احترامي لك ، و وجهك مرآة أبصر بها عيوبي، وأقل ما يقال عن فلسفة كهذه أن فلسفة إنسانية تفتح الأفق للآخر، فالذات لا تحس بمكانتها ووجودها إلا من خلال تمجيد الغير و التضحية في سبيله بعيدا عن أي غاية أو مقابل أو منفعة. لكن بشرط أن يؤم الكل بها القوي قبل الضعيف و الحاكم قبل المحكوم و السيد قبل العبد، وتبقى أخلاق المسؤولية فكرة فلسفية في انتظار أن تتحول إلى سلوك اجتماعي و سياسي واقعي، وإن كانت أخلاق الغيرية في نظر ليفيناس هي أساس للعلاقة بين الأنا والآخر فإن أخلاق المسؤولية هي أخلاق هذه الأخلاق.

الهوامش

1- ليفيناس، الزمان والآخر، ترجمة جلال بدلة ، ط1 ، معابر للنشر والتوزيع، دمشق، 2011 ص.09

2- المصدر نفسه، ص 86 .

3- Emmanuel Levinas, Huminisme de l'autre homme (Première édition; paris : le livre de boche biblio essais, 1972) p53.

4- ليفيناس، الزمان و الآخر ، ص 106 ، 107 .

5- بول ريكور، الذات عينها كآخر ، ترجمة جورج زيناتي ط1،المنظمة العربية للترجمة ، بيروت،2017 ، ص 377 .

6- جاكلين روس، الفكر الأخلاقي المعاصر، ترجمة عادل العوا ، بيروت ، دار عويدات للنشر والطباعة، 2001، ص.66

7- جوديث بيتلر، الذات تصف ذاتها ، ترجمة فلاح رحيم، دار التنوير، بيروت ، 2014، ص 168.

8-Emmanuel Levinas , ethics and infinity (Première edition ; Pittsburgh, USA : conversations with Philippe Nemo, Translated by Richard A. Cohen, Duquesne .Uniersity Press, 1985), p113

9-Emmanuel Levinas, Quatre lectures talmudiques (Edition minuit; Paris: 1968), p22

10-Emmanuel Levinas, totalité et infini,(Première édition ; France : essai sur l'extériorité, martinus nijhoff, 1971) ,p34

« la paix doit etre ma paix dams une relatuon qui part d'un moi et va vers l' autre .dams le desir et la lronte ou la moii . a'la fois se muintont et exist saus egoimue »

11- جوديث بتلر، الذات تصف نفسها ، ص 170 .

12- ليفيناس، الزمان و الآخر ، ص 14،15 .

13- ليفيناس، الزمان و الآخر ، ص 77 .

14- المصدر نفسه ، ص 15.

15- المصدر نفسه، ص 93 .

16- المصدر نفسه، ص 15.

17- جاكلين روس، الفكر الأخلاقي المعاصر، ص.66

18- بول ريكور ، الذات عينها كآخر ، ص 374، 375 .

19 - ليفيناس ، الزمان و الآخر ، ص .15

20- بول ريكور ، الذات عينها كآخر ، ص 175 .

21- المرجع نفسه ، ص 374 ، 375 .

22- جاكلين روس، الفكر الأخلاقي المعاصر، ص.68

23-ليفيناس ، الزمان و الآخر، ص 77 .

24- جاكلين روس، الفكر الأخلاقي المعاصر، ص67.

25 - ليفيناس ، الزمان و الآخر ، ص 77 .

26 - المصدر نفسه، ص 38 .

27-المصدر نفسه، ص 78 .

28- عبد العزيز العيادي ، إتيقا الموت و السعادة،ط1، دار تونس للنشر، تونس ، 2005 .ص115

29 - جاكلين روس، الفكر الأخلاقي المعاصر، ص68.

30 - ليفيناس، الزمان و الآخر ، ص 21.

سادسا/ أخلاق المسؤولية وتقديس الغير

" تدل الأخلاق الحياتية على ضرورة البحث

عن أشكال الاحترام الواجب للشخص سواء

أكان هو الآخر أم المرء ذاته "

جاكلين روس

أخلاق المسؤولية و تقديس الغير

استطاع ليفيناس كما بينا سابقا أن يجعل من أخلاق الغيرية فلسفة أولى، بل إن مهمة الفلسفة السامية عنده هي التنظير لهذه الأخلاق، لكن جاكلين روس و رغم تأثرها بفلسفة أستاذها ليفيناس الأخلاقية تجاوزت هذا الطرح و أرادت لأخلاق المسؤولية أن تكون الفلسفة الأولى بدلا من الغيرية، و كانت جاكلين روس خير شارح لفلسفة ليفيناس الأخلاقية ، بل إنه في نظري لا يمكن فهم أخلاق المسؤولية عند ليفيناس و أبعادها إلا من خلال التعرض لأخلاق المسؤولية عند جاكلين روس ، وأغلب فلسفتها الأخلاقية مستمدة من فلسفة ليفيناس رغم تجديدها للكثير منها، وهذا ما سنبينه من خلال العناصر التالية .

1- أولوية الأخلاق النظرية و التحرر من حب الذات

بينت جاكلين روس أن الأخلاق قبل أن تكون ممارسة واقعية - كما يدعي البراغماتيون - يجب أن تكون تفكير منظور، لأن التفكير دائم الاتصال بنشاطي النظر و العمل، والفعل فالأخلاق هو إعمال النظر في الأخلاق العملية، لأن الأخلاق على صعيد الفكر في منظور روس هي " وعي و فهم و سلوك، و هي إنقاذ غرض مرموق و مسؤولية شاملة النظر و العمل" [1]. إن دلالة الأخلاق النظرية تتجلى في البحث و التفكير في الأخلاق، فهي بحث في الأسس النظرية العقلية المتعلقة بأحكام القيم والأخلاق والخير والشر سعياً إلى أسس الإلزام، ويدور اهتمامها الأساسي

بتحليل الأوامر والأحكام الأخلاقية، وهي بذلك تبحث في قواعد السلوك التي تشكل الأخلاق و الأحكام الأخلاقية حول الخير والشر.

فالأخلاق النظرية تتطلع إلى أن تكون إنسانية كلية تتجاوز أعراض الزمان و المكان لتبلغ حقيقة كل إنسان، إنها أخلاق تكشف عن إنسانية الإنسان تسعى إلى تأسيس أخلاق كونية صالحة للإنسانية جمعاء، وهذا ما نلمسه من خلال قراءة جاكلين روس لأخلاق العدمية وأخلاق المعنى كل ذلك ولد عندها ضرورة الاهتمام بكونية الفكر الأخلاقي باعتباره وسيلة أساسية لإنهاء الصراع الفكري في المجال الأخلاقي، وكذا إنهاء الصراع العالمي السياسي، وذلك بتحرير الإنسان من النظرة الضيقة للعالم و التشرد و التعصب العرقي و نفي الآخر واستبعاده وإنهاء حريته فالعدالة و الحرية حق للجميع، لهذا تدعو روز إلى ضرورة صياغة أخلاق جديدة قادرة على الصمود أمام كل المستجدات الراهنة، أخلاق تقوم على قيم إنسانية كونية نابعة من القانون الطبيعي الذي يحقق الحرية والإخاء و المساواة بين جميع الأفراد الذين تربطهم رابطة واحدة، وهذه الرابطة قائمة على العقل الواحد الذي يفرض ضرورة التعاون و الاتحاد والاعتراف بالآخر وبحديثه، فعصرنا الحالي عصر النرجسية وحب الذات و تهميش الآخر، عصر اللامبالاة بالآخر، عصر غروب الواجب، لذا دعت روس إلى ضرورة إعادة صياغة أخلاق نظرية جديدة قائمة على أساس حب الآخر والاعتراف به، وتحمل المسؤولية تجاهه تقول روس" إن الأخلاق النظرية تحتل المنزلة الأولى وإن الطلب الأخلاقي يبدو أنه ينمو

نمواً لا محدوداً فكل يوم نجد قطاعاً جديداً من قطاعات الحياة ينفتح أمام مسألة الواجب"[2]. ففي عصر يتسم بانتصار التقنية على الإنسان أصبح من الضروري قيام أخلاق جديدة قادرة على هيكلة الحياة، وضبط سلوك الإنسان، أخلاق تتماشى مع كل المستجدات، أخلاق قادرة على الصمود.

أسست روس لأخلاق جديدة مستمدة من أخلاق الغيرية، بدايتها نظرية نهايتها تطبيقية، أخلاق تنتقل من الوعي إلى الوجه، ومن الحرية إلى الأخلاق، منتقدة بذلك كل الفلسفات السابقة التي كانت تمجد الأنانية و المنفعة الذاتية وتسعى إلى اختزال الغير اختزالاً فاحشاً تماما كما فعل أستاذها ليفيناس، وهنا تظهر فلسفة روس الأخلاقية لتعطي للآخر منزلة مهمة في الفكر الغربي المعاصر، أخلاق جديدة لا تمجد الأحادية و تمقت الأنانية .

وتنطلق روس من فكرة أن الأخلاق الحقيقية هي الأخلاق التي تنظر للإيثار والتخلص من حب الذات تمهيدا للدخول في علاقة مع الغير فالأخلاق هي العلاقة العملية للواحد بالآخر [3] .أي أن الغير قبل الأنا قبل الذات و قبل العالم، لهذا نجد أن روس انتقدت العقلانيات الغربية ذلك أنها لم تنتج لنا في مناداتها بالحرية إلا الحروب و التعصب و العنف لهذا نادت روس بضرورة الاعتراف بأهمية الآخر ومحبته وتحمل المسؤولية تجاهه بعيدا عن كبرياء الأنا الزائفة، ودعت روس إلى أخلاق جديدة قائمة على محبة الآخر وتحمل المسؤولية تجاهه ونيابة عنه .

وبينت جاكلين روس أن النزوع الشديد نحو الوحدة و الأحادية الذي رافق التقاليد الفلسفية والميتافيزيقية الغربية منذ القدم، وكذا الاهتمام بالعقل والذات والأنا، يشكل طرحاً أخلاقياً خطيراً بإقصائه للكثرة والآخرين، أين أصبح البشر مجوفين نرجسيين أمام زمن الفرد النرجسي الذي أدى بدوره إلى تشتت المجتمع إلى غبار لا نهائي من النرجسيين، إذ أصبحت الفردية استقلالاً ذاتياً يسيطر على العصر، مما جعل الإنسان بلا عاطفة تقول روس" إن الفردية الحديثة أخذت تدل على السلبية، بل على اللا حساسية على الأسلوب البارد والمتشنج بدل أن تكون فضيلة واستقلالا ذاتياً يغدو عامل قبول كلي يصلح للبشرية بجملتها "[4]. فالفردانية هي التي تتسبب في إلغاء الغير.

وتعتقد روس أن المجتمع في ظل هذه النرجسية والذاتية وعبادة الأنا وتمجيدها أدى بالأفراد إلى الابتعاد عن طريق الفضيلة والأخلاق أين انتهت المثل العليا، وأصبح الإنسان بارد الشعور والإحساس لا يحس بغيره، ومنه تم القضاء على رابطة المحبة و الأخوة و الصداقة بين البشر لتتحول إلى أنانية ونرجسية لا تعترف بالآخر، وكل هذا الانكباب على الذات الثابتة وطمس الإحساس، جعل الفرد عديم الاحساس بغيره وينظر إلى الآخر نظرة قمع وعنف واضطهاد اختزلته العبارة الشهيرة "الجحيم هم الآخرون". كل هذه الظروف والمعطيات دفعت جاكلين روس إلى نقد التقاليد الفلسفية الغربية التي سعت إلى طمس واختزال الآخر ذلك أن الآخر غير قابل للاختزال ولا التهميش، ورفعت روس شعارا مضاد

للشعارات السابقة وهو " التطهر من الذاتية "، ومن هنا يكون منطلق روس ليس الذات كما عودتنا بعض التيارات الفلسفية الغربية خاصة (الحداثية) و ما بعد الأنوار، ولكن المنطلق و المركز هو الآخر الذي يمثل اللقاء به إطاحة لذلك الانكباب على الذات، لهذا دعت روس إلى ضرورة استقبال الوجه بدل تهميشه، وضيافته بدل العنف ضده من خلال الوجه، ومنه كان سؤال العلاقة مع الآخر أكثر أهمية عند روس من سؤال الوجود، أين تنتشر المحبة و الأخوة بين الأنا والآخر وتصبح بذلك الذات حارسة للآخر، ومسؤولة عنه مسؤولية شاملة، لا لشيء سوى أننا نرى في الآخر أنا أخرى تأخذ صفة الأخ أو الأب أو الصديق، وأخلاق المسؤولية تجاهه تمثل مركز الفلسفة.

فالرغبة في الهيمنة على الآخر والعنف ضده واللا عدالة واختزال الآخر وطمسه كل هذا يعطي المشروعية لفلسفة جاكلين روس، لكي تتأسس بوصفها مسؤولية أخلاقية تجاه الآخر ومن أجله، لهذا فالعلاقة مع الآخر هي علاقة على الفور أخلاقية، ذلك أن الآخر هو من يطلب مني أن لا أتركه يموت وحيدا، لأن تركه قد يعرضه للخطر خطر الموت مما قد يجعلني شريكاً في موته، لأن قتل الآخر يعني " فقدان الوعي الذاتي فرصته في الحصول على الاعتراف"[5]، خاصة في عصرنا هذا أين تتزايد حاجتنا لتحمل المسؤولية تجاه النوع الإنساني، فالوجه هو موضع التخاطب الأخلاقي الذي يتجاوز الاختزال، فهذا الوجه كما تقول روس يطالعني دائماً بمطلب أخلاقي أكون مضطراً للاستجابة له، فمهما فعل

الآخر فإن وجهه يعيدني إلى ضرورة الاستجابة له، وهناك إرادة لم أخترها أنا تمنعني من الثأر.

ومنه كانت فلسفة روس جواباً على كوارث القرن العشرين، وما ارتكبه الإنسان بحق أخيه الإنسان، و هو ما جعل روس ترى أن العلاقة بالآخر علاقة مؤسسة للأخلاق، لهذا تدعو روس إلى ضرورة الاعتراف بالآخر ومحبته، لأن ذلك يقضي على الأنانية و النرجسية، كما يقضي على الانكباب على الذات وتهميش الآخر و محاولة إقصائه، وهذا ما جعل روس تطرح أسئلة عديدة عن الأخلاق النظرية ومصيرها في ظل هذا الانكباب على الذات، فهل يكون من الممكن في عصر البشر المجوفين الآيلين إلى اختيارات خاصة و نرجسية العثور من جديد على أخلاق نظرية صالحة للبشرية جمعاء؟ لهذا نجدها تؤكد على ضرورة إبداع أخلاق نظرية واسعة، أخلاق نظرية تأخذ أصالتها من الاعتراف بالغير والغيرية، أخلاق تتحمل مسؤولية الآخر، فمن غير الأخلاقي حسب روس إقصاء الغير أو تهميشه أو إدماجه في سياج الذاتية، لذا دعت روس إلى ضرورة تغيير الرؤى الميتافيزيقية نحو الآخر والاعتراف به.

وتؤكد روس على أن مبدأ الاتصال الذي يدل في معناه العام على ذلك التبادل بالإشارات أو بالرسائل الذي يجري بين شخص و شخص أو بين فرد وفرد أو بين جماعة و جماعة، كما أكدت أن هذا المبدأ يقدم طراز تخلق حريص على أن يعمل عبر التبادل و غياب العنف تجاه الغير تقول روس" إن مبدأ الاتصال يرتدي معنى بإدانة هذه الحضارة، حضارة

النرجسية والفردية إنها القادرة على السيطرة التامة على الأشكال الثقافية المعاصرة "[6]. ذلك أن مطلب أساس الأخلاق النظرية بأعمال هابرماس يشكل اندفاعات عصرنا الذي تطغى عليه الفردية من المبعثر والجزئي والذاتي إلى الأمر الكلي الصالح للبشرية بجملتها، ذاك هو المنحى أو أحد المناحي لحركة الأخلاق النظرية المعاصرة[7].

إن الاتصال والاعتراف بالآخر يدخل ضمن إطار التعميم الكلي ضمن دائرة الأخلاق، لأن كل اتصال يفترض مسبقاً وجود تفاهم بين الأعضاء، وأن المناقشة تفتح السبل أمام ما يبدو صالحاً للجميع، ويرى هابرماس أن الاعتراف بالآخر هو نمط من الاحترام المتبادل بين الأنا والآخر أثناء عملية النقاش الذي يهدف إلى تحقيق التفاهم والإجماع بحيث يـؤدي الحوار بين الأنا و الآخر إلى القضاء على كل أشكال العنف والسيطرة[8]، فعملية تكوين الذات تتوقف على ما يسميه بالتفاعل الاجتماعي، فمن خلال هذا التفاعل بين الفرد و الغير يكتسب الفرد وعيه بذاته، لأننا لا نستطيع أن نحقق ذواتنا إلا من خلال الاعتراف بالآخر ومن خلال علاقتنا بغيرنا من الناس، وهنا تؤكد روس أن الأخلاق تعثر على مبدئها في إطار هذه العلاقة تقول روس " و في الواقع إن كل اتصال هو أمر معياري إنه يفترض مسبقاً أن الآخر شخص وأني لا أعامله معاملة شيء إن الاتصال يعلن عن مملكة الأخلاق النظرية عن الاعتراف بالأشخاص ضمن أفق التعميم الكلي "[9]. فالاتصال أصبح الصوت الوحيد القادر على توحيد العالم الذي فقد مرجعياته، لأن كل

فرد لديه القدرة على النقاش بطريقة كلية، هذا التواصل الذي يتبع معايير أخلاقية يؤسسها الوعي الأخلاقي أو الأخلاق النظرية فهدف النقاش بين الأنا و الآخر هو الوصول إلى أخلاقية كلية و شمولية.

وتذهب روس إلى القول بأن هابرماس أكد بأنه يمكن التوصل إلى المعايير الأخلاقية عبر نقاش حر عقلاني انطلاقاً من خاصية الكلية، أي القبول والرضا العام عن طريق الإقناع العقلي لا القوة والقهر كما يعتقد نيتشه، ومنه تعتقد روس أن هابرماس يجمع بين الأخلاق النظرية ومبدأ الاتصال تقول في ذلك " فالعقل الاتصالي هو الذي يسود مقاربة هابرماس و هي ترجع إلى معايير التعميم الكلي للخطاب الذي يتيح بلوغ حقل الأخلاق النظرية "[10]. بمعنى أن هابرماس يؤكد أنه ينبغي على من يريد النظر إلى أمر من الأمور من الزاوية الأخلاقية ألا يتجاوز سياق ما بين الأشخاص المشاركين في التواصل والذين يدخلون في علاقات شخصية بينهم، ونحن حين نتجاهل سياق التفاعل الذي يتم من خلال اللغة لا نحصل على نظرة حيادية بل نصل إلى رفع الحواجز حسب النظرات الفردية للمشاركين، وهذا ما تؤيده روس وتؤمن به.

ويعتقد هابرماس أن اللغة هي مفتاح الأخلاق، لأن الأخلاق تقوم على نوع من التواصل أو التواصلية، وهو ما أطلق عليه هابرماس اسم "الأخلاق التواصلية" بواسطة وسيلة أساسية هي اللغة، وهذا ما أكده بقوله" إن النقاش الأخلاقي لا يرى بصورة جيدة إلا عندما يلجأ إلى

الشمولية الموضوعية "[11]. أي الكلية التي يكون أساس التواصل بينها الإقناع و ليس الاستبداد في الرأي.

وترى روس أن النقاش الأخلاقي منهج أو طريقة يتأسس عليه الطرح الأخلاقي، وهنا يظهر الأمر القطعي مرتبطاً بالتواصل الذي يقدم فهما جديداً للعقل العملي، وتعتقد روس أنه يمكن أن نعود بهذا المشروع الأخلاقي و الأخلاق النظرية التي قدمها هابرماس إلى كانط مع تميزه عنه و الذي يقترح علينا فيه هابرماس المبدأ الذي يخضع إليه التعميم الكلي و القائل " يجب على كل معيار صالح أن يلبي الشرط القائل أن النتائج الثانوية التي تصدر عن واقعة أن المعيار كالملحوظ بصورة كلية في نية إرضاء مصالح كل إنسان، فهي من الممكن أن يقبلها جميع الأشخاص المعنيين، هنا يظهر الأمر القطعي مرتبطاً بالتواصل الذي يقدم فهماً جديداً للعقل العملي"[12]. بمعنى أن التفاعل مع الآخر والاعتراف به واحترامه كآخر مختلف عنا، والحوار معه والإصغاء إليه، والنظرة إليه بنظرة أخلاقية أساس ضمان السير في الطريق الصواب للإنسانية جمعاء.

وتدعو روس إلى ضرورة تجاوز كل الأوضاع المقلقة و المهددة لمسيرة الإنسانية، و هذا لن يتأت إلا من خلال التخلص من الأنانية و التوجه إلى محبة الآخر والاعتراف به، لأنه الكفيل بتفادي بؤر التوتر و العنف واستبعاد شبح الحرب التي تهدد المجتمعات المعاصرة، و بينت روس أن " الإتيقا " تبدأ عند اللقاء بالغير وتحديداً عند استقباله " كوجه" أين

يكون الفرد دائماً و أبداً لأجل الآخر أين يكون اللقاء هو من يسود دائماً والحوار والمناقشة، ومن ثم يخرج الفرد من دائرة الوعي بالذات إلى الوعي بضرورة الآخر وأهميته، الآخر الذي لا يمكن طمسه و لا تهميشه ولا اختزاله، و تعتقد روس أن الأنا ليس هو من يبقى ذاته دائماً ولا من ينغلق على ذاته و هويته وإنما من يبحث عن هويته من خلال الآخر، فالآخر الذي يمثل الغريب و المختلف عن هوية الذات في اللغة أو العرق و الدين أو الثقافة يمثل الأساس الذي تتشكل به الهوية الخاصة بالأنا، فالحوار الذي يقام بين الأنا و الآخر هو ما يولد حسب روس العلاقة الإتيقية (الميتافيزيقية)، لهذا نجد أن الأساس في اعتراضات روس على الفلسفة الغربية يكمن في رفضها مشروع الانطولوجيا الهادف إلى اختزال الآخر ومناداتها بالميتافيزيقا التي تسعى إلى ما وراء ذاتها و تتجه إلى الآخر، كما أنها تنشغل بالمسائل الأخلاقية و الذي يمثل ميل روس للميتافيزيقا ورفضها للأنطولوجيا و هو ما دفعها للتساؤل : هل الانطولوجيا شيء مركزي حقاً؟

إن الأنا لا يمكن أن يبقى وحيداً إنه دائما يتجه نحو الغير، لأن الفرد لا ينفك عن عالم الآخرين، لأن الأخلاق النظرية هي في مركزها علاقة بين الأفراد وهي الأولى، إنها كما تقول روس "تجربة لا تنحل إلى سواها تقدم ذاتها على أنها ليست التركيب بل الوجه للناس إنها بكل بساطة علاقة لقاء مع الآخر" [13]. أي أن الأخلاق هنا تشير إلى مستوى ميتافيزيقي لا يمكن للأنطولوجيا بلوغه وهو "التعبيرية"، ومنه أكدت روس أن أولوية

الأخلاق تقوم على أولوية الآخر، لذا كانت العلاقة القائمة بين الأنا والآخر ذات طابع أخلاقي، وتقوم على روابط أخلاقية، الاعتراف بدل التهميش والاختزال، المحبة والأخوة بدل الكره، التسامح بدل العنف، فالوجه يمثل مرآة عاكسة لكينونة الأنا، إذ يبرز الآخر و ينعكس من خلال الوجه فهو بمثابة هوية للكائن، لذا فإن العلاقة مع الوجه علاقة أخلاقية ينبغي على الآخر أن يحترمها ويعترف بمنزلتها.

إن الوجه لا يقبل الاختزال في الوعي أو الإدراك، إنه لا يرتضي التملك والسيطرة أو الاحتواء، ولا يقبل القسمة ولا الاحتواء والتملك، لأنه مطلق إنه سيد العدالة الذي يقضي على فكرة العنف، فهو واسطة لاستقبال الآخر والترحيب به والتعرف على إنسانية الإنسان الآخر، ذلك أن الوجه يجعلنا منفتحين على العالم وهذا ما تسميه روس باسم "ضيافة الوجه" أي سلام محض مع الآخر المطلق، علاقة بلا عنف، لأن الإتيقا تظهر هنا كنقيض للعنف أي تحريم أي فعل عنيف قد يؤدي بحياة الآخر، ومنه كانت العلاقة بالآخر سلوك أخلاقي وليست لاهوتاً أو معرفة بخصائص الله، الآخر الإنساني ليس تجسيدا لله، لكنه ظهور للعلو حيث يتجلى الله تقول روس" إن مطلب الأخلاق النظرية هو مطلب متماه مع الوجه، فأمام الوجه أمر إلى الأخلاق النظرية و إلى الله"[14]. وهذا يعني أن لقاء الوجه للوجه أو الذات والآخر وجها لوجه يتطلب واجباً أخلاقياً يفرضه الآخر علي، لأن في ذلك إدراك للانهائي، ذلك أنه ليس من السهل التفكير في اللانهائي على مرمى الاستقلال من الآخر، مما يعني أن

الإله سيصبح حاضرا من خلال الوجه بدلاً من الغياب الذي يكون في العقل، إذ يوجد في الإنسان إلهام بالاستجابة للغير وتلبية ندائه، وكأن في هذا الإلهام مسؤولية أمام وحي إلهي، لذا تدعو روس إلى ضرورة أن ننظر إلى الآخر بهذا المعنى، لأنه هو نفسه تعالي الغير، وهو الذي نستمده من تعالي اللانهائي والغير شرط لإله الغيرية.

وهذا اللانهائي و الإلهام الرباني يتجلى حتماً من خلال منع ارتكاب العنف و القتل، وكأن الوجه يتحدث بلسان إلهي، ويأمرنا بعدم ممارسة فعل القتل، لأن هناك إلزام أخلاقي ينهى عن القتل كما لو أن سيداً يأمرني بذلك، إنها وصية أخلاقية وسماع لكلام رباني يأمرني بعدم قتل الآخر ولا تعنيفه، إنه التحرر من الأنانية، ذلك أن لقاء الأنا بالآخر يعني أن مجد اللانهائي الذي يتجلى كأساس الإتيقا و شعور بإنسانية الآخر في علاقة لا تكون علاقة بالغير بقدر ما تكون علاقة باللانهائي والتعالي ومنه يمكن القول أن الإله هو الآخر الذي يقلب طبيعتنا الإنسانية رأساً على عقب، ويجعل رغبتنا في العنف والقتل معكوسة إلى صرامة أخلاقية تدعو إلى المحبة و الأخوة و التسامح، وهكذا يمنح التعالي الديني للأخلاق النظرية معنى إذ في الوجه أدرك وأسمع كلام الله[15]، وتكمن أهمية اللانهائي حسب روس في تحويل علاقاتنا بالغير إلى علاقات إخاء وحب ومسؤولية، فكلام الله يظهر عبر مجد الوجه، ويدعو إلى مطلب إتيقي وليس معنى هذا أننا نرى الإله في الغير، وإنما نسمعه على شاكلة نداء يتوجه نحونا، فبلوغ الوجه حسب روس معناه بلوغ فكره الإله، ذلك أن

علاقة الإنسان بالله تبدأ مع الغير و هي بمثابة إلزام إتيقي به أدرك أهمية الآخر، وأخلاق المسؤولية التي هي منتهى علاقة الذات بالغير، وهي المجسد لحقيقة علاقتنا بالله، ومن ثمة فإنها مركز الفلسفة، وهي فلسفة الفلسفة، إنها الفلسفة الأولى.

2-أخلاق المسؤولية و ضرورة الاعتراف و الاحترام

تنطلق روس في فلسفتها الخاصة باحترام الآخر، ومن ضرورة تغيير الرؤى الميتافيزيقية نحو الآخر والاعتراف به، لذا أكدت على ضرورة تجاوز الأخلاق لكل أشكال العنف والتعصب والدكتاتورية لتتجه نحو فلسفة كونية نحو التسامح وفلسفة اللا عنف واللاقتل، واستهجان الحروب التي تزهق من جرائها الأرواح البريئة، وهذا لن يتأت حسبها إلا من خلال التفاعل مع الآخر والاعتراف به، وتحمل المسؤولية تجاهه ذلك أن الآخر يتمتع بحقه علينا في الاحترام كآخر مختلف عنا، لأن الاحترام هو بمثابة وضعية شعورية واحساس أخلاقي يتطلب الاعتراف المتبادل بدل الإلغاء تقول روس " تدل الأخلاق الحياتية على ضرورة البحث عن أشكال الاحترام الواجب للشخص سواء أكان هو الآخر أم المرء ذاته"[16].

فبمقتضى الأخوة بين الأنا و الآخر يتحقق الاحترام، حيث لا يؤاخذ أحدهم الآخر بأخطائه إنما يعمل كل واحد على معالجة هذه الآفات كما يعالج الطبيب مرضاه بقلب متسامح و يحملهم إلى طريق الفضيلة.

وتذهب روس إلى القول بأن بلوغ معنى الإنسانية لا يكون إلا بأن يتغاضى الفرد عن ذنب أخيه حتى و إن اشتد ظلمه له، ومهما بلغ من قسوة التعامل فلا ينبغي أن يحرك ظلم الظالم حقدنا وكراهيتنا له، ولكن يجب أن نسامحه ونغفر له أخطاءه وظلمه، لا لشيء إلا كوننا نرى فيه الوجه الآخر، أي نرى فيه أخ أو أب بما أننا إخوة، فالتسامح كما يعرفه جميل صلبيا " هو واجب أخلاقي ناشئ عن احترام الشخصية الإنسانية "[17]. لذا ما على الإنسان إلا أن يقتل في نفسه الرغبة في ارتكاب الشر والعنف تجاه الغير الذي يمثل نصفه الآخر و الذي يتوجب عليه احترامه فالشعور بالأخوة هو الذي يجب أن يوجه علاقتنا بغيرنا، فإن كان أخوك ظالم لك لا تأخذه من هذه الجهة، وإنما خذه على أنه أخوك وعلى أنكما تغذيتما من منبع واحد [18]، فأساس الأخلاق والخير قائم على التسامح والبعد الإنساني، والإنسان الذي ينشد الحياة السعيدة مع الآخرين من البشر يجب أن يندمج كلياً مع الطبيعة الإنسانية الكونية لا لجماعة محصورة في عدد معين من الأفراد، وتعتقد روس أن السعادة تنحصر إذن في ضبط النفس و عدم الانتصار للذات و الاكتفاء بها، لأن السعادة هي التحرر من كل انفعال أو التخلص من الهوى ، إنها الخلو من الاضطراب، فهي السلام الداخلي و الطمأنينة و الاتزان الأخلاقي و الذي يكلل باحترام الغير.

إن الآخر من خلال نظراته للذات يترك أثرا ووقعا في النفس واستمالة للعقل وارتساما في الذهن، فالحوار والتخاطب مع الآخر الذي

يتعدى اللغة أو هو واسطة بين الأنـا و الآخر التي تجعل العلاقة بين المتحاورين ممكنة، وتحقق التواصل الكفيل بعقلنة البشر والحد من نزاعاتهم، ففي الحوار يتحقق الانجذاب نحو الآخر باعتباره مشارك لي ومن هنا ينشأ الاحترام والاعتراف المتبادل، لهذا وجب الاهتمام بالآخر وعدم قهره أو الهيمنة والتعدي عليه، لأن منع الرحمة عن الغير هو إنكار الآخر الذي هو أنا، لذا وجب أن تأخذ العلاقة شكل "أنا – أنت" بدل "أنا- هو"، أي اعتراف بدل تهميش الغيرية ونبذها، فعملية الاعتراف بالآخر القائمة على ضوابط أخلاقية كالمحبة والأخوة والتسامح كفيلة بأن تخرجنا من النرجسية والأنانية التي سيطرت على الإنسان والعالم إذ تؤكد روس على أن المحبة هي ذلك المقياس الأسمى الذي ينبغي أن يحكم علاقاتنا "و تعتبر جميع القواعد ومطالب الأخلاق والقوانين تنمية إذا كانت تخدم الحب في أية حالة "[19].

ومنه تنتهي روس إلى ضرورة محاربة الانكباب على الذاتية الثابتة وإعادة الاعتبار إلى الآخر في تعاملنا معه و تثمين مسؤوليتنا تجاهه وحق بالاعتراف به، وفي احترامه كآخر مختلف عني ويجب الإصغاء إليه والحوار معه، فمن غير الأخلاقي إقصاء وعزل الآخر أو تهميشه أو إدماجه في سياج الذاتية.

تريد جاكلين روس لقاء الإنسان بنظيره الذي سيقضي حتماً و دون شك على أنانية و نرجسية الإنسان، وإتاحة الفرصة للآخر للتعارف والتحاور هي السبب الذات من عزلتها و توحدها، ومنه يتقاسم الغير مع

الذات هذا الفضاء الإنساني الرحب حيث الخير والحب والتسامح واللاعنف، لأنه في الحب يتجلى الله ويكون حاضراً بيننا، لأن المحبة هي أصل تواصل الأنا بالآخر، محبة تنبثق عنها قيم الرحمة والإحسان وتنشأ عنها الأخوة الإنسانية، إننا عندما نكتشف وجه الآخر لا يمكننا التغاضي عنه وتجاهله إنسانياً وأخلاقياً، وهذا ما يؤكده ليفيناس، فهو يفرض ذاته علي فلا أستطيع الامتناع عن تلبية نداءه أو أن أتجاهله أو أعدمه لأن عظمة الغير ومحبتي له تجبرني على أن أكون جاهزاً وحاضراً من أجل خدمته.

وتنبه روس إلى ضرورة احترام ما نادى به ليفيناس من تنقية الذات أو الأنا من كل الأمراض التي قد تحول بينها و بين الآخر كالحقد والحسد بدل الحب، وترجع روس سبب الحقد بين الناس إلى الكره الذي نحسه تجاه من يمتلكون مواهب أكثر من كرهنا للفضائل التي اكتسبوها، ومنه تعتقد روس أن مشكلة الحقد والحسد لا يمكن التغاضي عنهما، فهي ترى أن الحسد هو" تلك العاطفة من الحزن الناجم عن رؤية خير الآخر وهي ذلك الميل إلى الشعور بالبغضاء حيال ممتلكات الآخرين" [20]. فالحسد ضار اجتماعياً لأنه ينطوي على خبث قد تمارسه الذات على الغير، لهذا أكدت روس أن المجتمع الجيد التنظيم ينتج الإنسان السوي الذي ينشد المحبة وينبذ غير ذلك، أي المجتمع الذي يدعو إلى قهر الحقد والحسد، ذلك أن الحسد والحقد يؤديان إلى انتشار الأنانية والعنف بدل

الحب واللاعنف، ويجب على كل مجتمع أن يحترم الشخص الإنساني الذي يقلل من خطر الحسد.

وتشيد روس بفلسفة الوجه التي قال بها ليفيناس وتعتبر الوجه مقيدا العنف و يؤسس الأخلاق، فالوجه يعمل على زعزعة أنانية وحسد ونرجسية الأنا في حد ذاتها، إن الإنسان الذي يشعر باللامبالاة تجاه الآخر لا يستطيع فهم قيمه، بل ويفقد هو أيضاً قيمته الشخصية لأن " غياب الشعور بالمعاناة والواجب و المسؤولية تجاه الناس الآخرين وغياب مستوى الوعي الأخلاقي لديهم و خوفهم على حياتهم الشخصية وسعادتهم التي تحل المرتبة الأولى أثار لديهم الوحشية و الأنانية "[21] فالشعور باللامبالاة تجاه الآخرين أو الغير لا يدخل في إطار الحقيقة الأخلاقية، لأن الإنسان الذي لا يبالي بغيره يفقد شخصيته، ويفقد فهم مبدأ العلاقات الأخلاقية، لأن اللامبالاة تولد الأنانية و الوحشية، وحب الآخر هو البديل، ويجب أن يكون الشخص الآخر بالنسبة لشخص ما غرض القيمة الرئيسي و هنا تظهر مرة أخرى مركزية أخلاق المسؤولية في فلسفة جاكلين روس.

وتهدف فلسفة روس الى بعث حيوية اخلاق الغيرية عند ليفيناس وتثمينها، وذلك بإعادة الاعتبار إلى الآخر الذي أهدرت كرامته واحترامه وتم تهميشه وعدم الاعتراف به، كما تم إقصاؤه من قبل الفلسفة الغربية وذلك بتمركزها على الذات على غرار العدمية ، فالوجه حسب روس هو دعوة للاعتراف وإقامة الحوار مع الآخر المختلف، إذ هو دعوة لإقامة

السلم ونبذ العنف، وإذا سادت المحبة بين الذات والغي و ساد التآخي وانعدم التعصب والتمييز العنصري وتم إقرار الحقوق والاعتراف بالآخر يتولد الاحترام بين البشر مهما اختلفت ألوانهم وأجناسهم وطبقاتهم الاجتماعية، حيث يسود التعاون بين الأفراد ولا يضر أحدهم الآخر ويكون بذلك تعاونهم وتعاملهم بمقتضى قيم الإنسانية السامية من أجل بلوغ السعادة التي هي الغاية القصوى للإنسان، لأن السعادة تتصف بالشمولية تقول روس" السعادة بناء علاقات، صلة جوهرية مع العالم ومع الآخر، وبقول وجيز عاطفة شبه أنطولوجية منح الذات للذات أين يغدو رصد الذات معالجة مع الكيان الآخر انطولوجيا "[22]. فالوجود لا يتحقق إلا بالسعادة والسعادة تستحيل في غياب الغير.

لهذا كانت المحبة والأخوة أفعال للقيم المفتوحة والنامية، إنها خيار لمحاصرة البغض والكره والعنف والرغبة في إيذاء الآخرين، إنها الطريق إلى الشعور بالسلام الداخلي والسعادة، فعندما نسامح ونحب الآخر نساهم في التئام الجروح، ذلك أن التسامح يولد قيم الصفح ويشجع على التواصل، إنه السبيل إلى السعادة الإنسانية إنه كما تقول روس أقصر طريق إلى الله، فالآخر ليس غريب إذ بالإتيقا يتحول إلى قريب و أخ، وكأن الله ينزل بتعاليه و تجريده ليتحدث إلينا باسم الآخر، تقول روس "يتضح إذن أن من المتعذر النظر إلى الاستشهاد النوراني على أنه سلطة فالأخلاق النظرية تفهم من تجربة الوجه، وغاية ما في الأمر أن الفلسفة هي المتقدمة، وأن الأخلاق النظرية تستند إلى تجربة الآخر وليس إلى

تجربة المقدسين، ولئن كانت تتغذى من التقليد النوراني أو التلمودي فإنها لا تخضع له "[23]. وهنا تظهر مركزية أخلاق المسؤولية أيضا باعتبارها فلسفة أولى و ذات أولوية عند روس.

وعليه فالمسؤولية تجاه الآخر تؤسس لإتيقا ليست دينية، لأن المسؤولية تجاه الآخر تسند دوماً إلى الأهمية القصوى للوجه الذي على أساسه تبنى أخلاق المسؤولية وهي التي تقربنا من الله، وليس الإيمان بالله هو الذي يجعلنا نتبنى أخلاق المسؤولية، فما إن ينظر الآخر إلي حتى تكون الأنا في خدمته ومسؤولة عنه، فالوجه حسب روس مقدس أكثر من المقدس ذاته، أي أنها استبدلت الدين بالإتيقا، فالولوج للوجه هو ولوج للإله و للمقدس تقول روس " إذا كانت الأخلاق و الأخلاق النظرية غير دينيتين و ترجع إلى مبدأ متعالي يكون أساسهما، فإن كلام الله هو ذلك الذي يتجلى منقوشاً في وجه قريبي مادام الله يتكلم حرفياً في الإنسان "[24] فالأخلاق النظرية لا تقوم على أساس ديني، بل على تجربة الآخر الذي أرى فيه وأسمع كلام الله، إنه يفرض علي إبعاد العنف، وكأن الله هو الذي يأمرنا بعدم ممارسة العنف ضد هذا الوجه، ومن هنا تنعقد الصلة بالآخر المطلق واللانهائي انعقاد محبة وأخوة ومسؤولية.

والدافع الوحيد للعناية بالغير هو شعور الأنا بنوع من الإنسانية تجاهه، فالأنا تعبر عن ماهيتها وقيمتها من خلال الغير، وبأنها لم تعد سجينة مرض "مركزية الذات" فالروابط الإنسانية الأصيلة التي نقيمها مع الآخرين هي روابط عميقة.

وتؤكد روس أن جدلية تواصل الأنا بالآخر يترتب عنها اتساع دائرة الإحساس بالمسؤولية إحساساً تعطيه روس بعداً إنسانياً عالمياً أو كونياً ذلك أن الغاية من أخلاقيات التواصل بالآخر التي لا تتوقف فحسب عند احترام الآخر، بل يترتب عنها التزام أخلاقي يدعو الأنا لحب الآخر ففي تجربة الحب ينكشف لنا الآخر كموجود لا نهائي، وتظهر أخلاق المسؤولية باعتبارها خوف على الغير والتزام أمامه.

إن الذات لا تعيش منعزلة ولا قيمة لها في ذاتها بل هي في علاقة يومية مع الآخر، لأن تقدير الذات حسب روس وليفيناس يتجلى في احترام الآخر، كما أن العدالة تقتضي الاهتمام أيضاً بالآخر البعيد الذي هو أي إنسان، وهذه العدالة تتجلى في أن يحصل أي فرد في جماعة على نصيبه الذي يستحقه من الخير[25].

بناء على ما سبق نستنتج أن روس قدمت للدرس الفلسفي المعاصر تحليلاً رائعاً فيما يخص مبحث الأخلاق بانكبابها على الإتيقا التي تربط الذات بالآخر، فقد أسست روس فلسفة أخلاقية تقوم على المبادرة اتجاه الآخر مع تحمل النتائج وهو عين أخلاق المسؤولية، فقد أعادت الاعتبار للآخر الذي تم طمسه و تهميشه من قبل التقاليد الفلسفية التي نادت بها العدمية، إذ بينت روز ضرورة وأهمية الاعتراف بالآخر، ذلك أن العلاقة بالوجه هي على الفور علاقة أخلاقية، ورؤية وجه الآخر في تعاليه و نبله توقد فينا ضمائر الخير و تشل الأيدي التي تحمل السلاح وتكبح إرادة الشر التي تسعى إلى ممارسة العنف تجاه الآخر، فالوجه حسب

روس لا يمكن قتله أو هو على الأقل ما يقول معناه " لا تقتل أبداً "، لأن الوجه هو التعبير الأصلي هو الذي يقيد العنف و يؤسس لأخلاق المسؤولية، لذا تدعونا روس إلى ضرورة الاعتراف بالآخر لا لشيء إلا لأننا نرى فيه الأخ و الأب أو اللانهائي ، فالغير يجرني إلى محبته و يجرني على أن أكون جاهزاً و في الخدمة لتلبية نداءه، و هنا تؤكد روس أن تحمل مسؤولية الذات أمام الغير دلالة على المحبة والسلام و اللاعنف والتسامح والاحترام ، ومن هنا وبالمحبة نقضي كما تؤكد روس على الذاتية وحب الأنا والأنانية والنرجسية، وعليه فإن الوجه لا يقبل الاختزال أو الاحتواء أو الإدراك، الوجه هو الآخر المطلق الذي لا يقبل القسمة، لهذا وجب الالتزام بإعطاء أهمية للغير وعدم قهره أو التعدي عليه.

و هكذا استطاعت روس تأكيد فلسفة ليفيناس و بعثها، كما عملت على تغيير الفكر الأخلاقي السائد في عصرها من تيارات فلسفية كالبنيوية و السيمولوجيا والوجودية و العدمية و غيرها، وذلك بنقدها للمركزيات العقلية المبجلة للوعي والذات التي سعت إلى إقصاء الآخر واستبعاده.

وتعتبر جاكلين روس المسؤولية تجاه الآخر هي على الفور علاقة أخلاقية تحرم أي فعل عنيف يؤدي بحياة الآخر، أي مسؤولية تمتد لتشمل المسؤولية عن موته، ومن هنا تبدو الأنا دائماً ذات مسؤولية تفوق مسؤولية كل الآخرين فتتحول الذات من مركزية الانطولوجيا إلى مركزية المسؤولية، وهو التأسيس لأخلاق المسؤولية، فالذات تتخلى عن

مركزية وجودها لتدخل في مركزية مسؤوليتها عن الغير. و هنا يبدو الفرق بين جاكلين روس و ليفيناس فمركزية اخلاق المسؤولية و اعتبارها فلسفة اولى يعادلها مركزية أخلاق الغيرية عند ليفيناس و اعتبارها فلسفة أولى .

الهوامش

1- جاكلين روس ،الفكر الأخلاقي المعاصر، ص8.

2 - المرجع نفسه، ص09.

3- المرجع نفسه ، ص270.

4- المرجع، ص.17

5- جوديث بتلر، الذات تصف ذاتها، ص11.

6- جاكلين روس، الفكر الأخلاقي المعاصر، ص17.

7- جاكلين روس، فلسفة الأخلاق المعاصرة، ص273.

8- علي عبود المحمداوي، موسوعة الأبحاث الفلسفية (الفلسفة الغربية المعاصرة)، ج2،ص.1593

9- جاكلين روس، الفكر الأخلاقي المعاصر، ص76.

10- المرجع نفسه، ص50.

11- هابرماس، الأخلاق و التواصل، ترجمة أبو النور حمدي أبو النور حسن ،دار التنوير للطباعة و النشر، بيروت، 2012، ص267.

12 - المرجع نفسه، ص269.

13- جاكلين روس ، الفكر الأخلاقي المعاصر، ص65.

14- المرجع نفسه ، ص65.

15- جاكلين روس ، فلسفة الأخلاق المعاصرة ،ص269

16- جاكلين روس ، الفكر الأخلاقي المعاصر، ص111.

17- جميل صليبا ، المعجم الفلسفي، ج1، ص217

18- أندري كرستون ، المشكلة الأخلاقية و الفلسفة، ترجمة عبد الحليم محمود، دار الشعب للطباعة و النشر و التوزيع بيروت، 1979، ص84.

19- شفار تزمان ،الأخلاق البورجوازية في العصر الحاضر، ترجمة محمود شعبان، دار دمشق للطباعة ، بيروت، 1986، ص182.

20- جاكلين روس ، الفكر الأخلاقي المعاصر، ص101.

21- شفار تزمان ، الأخلاق البورجوازية في العصر الحاضر، ص13.

22- جاكلين روس ، الفكر الأخلاقي المعاصر، ص57.

23- المرجع نفسه، ص35.

24- المرجع نفسه، ص35،34.

25- علي عبود المحمداوي ، الفلسفة الغربية المعاصرة، ج2، ص1288.

سابعا/ الحاجة الى أخلاق المسؤولية

" وقد جئت إلى هذا الموضوع بسبب انشغالي بإسرائيل/فلسطين، لأنني امرأة يهودية، بسبب شعـــوري المتكرر بالفـــزع مما يرتكبه الشعب اليهودي باسمي"

جاكلين روز

سابعا / مجالات أخلاق المسؤولية

تعتقد جالكين روس أنه لا يمكن فهم حقيقة أخلاق الغيرية وأخلاق المسؤولية عند ليفيناس إلا إذا كانت الأخلاق النظرية ذات أهمية ومكانة وهذه المكانة تستمد من تجسيد هذه الأخلاق النظرية على مستوى مجلات الحياة اليومية، وتحويلها إلى ممارسة عملية وواقعية، وذلك من خلال المجالات التي تظهر فيها أخلاق المسؤولية واقعيا حتى يكون مفعولها و نتائجها ملموسة من خلال ما يلي:

1-الأخلاق العملية و المسؤولية

الأخلاق النظرية لا تأخذ مكانتها وأهميتها، إلا من خلال الأخلاق العملية، لأن الأخلاق العملية تعتبر تتويج للأخلاق النظرية، و الأخلاق العملية هي مجموعة العادات الخلقية المنتشرة في المجتمع الواحد، إنها مجموعة القواعد و القوانين الأخلاقية العملية المقبولة لدى مجتمع ما في مكان و زمان معين، إنها علم عملي يهدف إلى تحقيق غاية في حياتنا[1].

وتجدر الإشارة إلى أن الأخلاق العملية تبحث في أنواع الملكات الفاضلة التي ينبغي على الإنسان أن يتحلى بها ويمارسها في حياته العملية اليومية، وتهدف إلى الإجابة عن السؤال : ما الذي ينبغي علي أن أقوم به في الواقع العملي؟ و منه فالأخلاق العملية تشمل مختلف نواحي الحياة وعليه فإن دورها يتمثل في "دراسة الواجبات المختلفة مثل واجب

الإنسان نحو نفسه نحو ربه وعائلته و نحو الوطن والإنسانية بوجه عام"[2].

إنها تعنى بدراسة الضمير والخير والواجب و الحق و النية و الاختيار والقيم و المثل العليا و الممارسة واقعيا حياتيا لا الموجودة على مستوى التصورات العقلية، و هذا ما جعـل

ومختلف الدوائر الخاصة بالعلوم البيولوجية و الإعلام الجماهيري وعلم التجارة و السياسة كلها تستدعي الفحص اليوم، في عصر كثر فيه تعويض الإنسان بالآلة وتفضيلها عليه، إذ دخلنا في نهايات القرن العشرين عالما جديداً قد قلب موازين الحياة الإنسانية ككل إنها الثورة البيولوجية الجديدة، فنحن على أبواب ثورة حقيقية ثورة في ميادين البيولوجيا و التجارة و الإعلام وحتى في السياسة، مما استوجب الوقوف أمام هذه الأخلاقيات الخاصة بكل ما هو تطبيقي عملي، و هذا ما يدفع إلى التساؤل التالي: ما المعنى الدقيق للأخلاق النظرية العملية في عصرنا؟ هذا ما استوجب ضرورة فحص كل هذه الأخلاقيات دون استثناء (الأخلاق الحياتية، أخلاق البيئة، أخلاق التجارة وأخلاق الإعلام وأخلاق السياسة)، و" كل ممارسة تستلزم اللجوء إلى معايير أو مبادئ تستهدف إنارة العمل على نحو يتيح توجيه أحوال السلوك "[3]. و يجب الالتفات إلى ضرورة الأخلاق التطبيقية (العملية) وآثار تطبيقاتها الحياتية على حياة و سلامة الكائن الحي وبيئته والبحث عن حلول

للمشكلات العملية التي يواجهها المجتمع، فأخلاق المسؤولية يجب أن تشمل كل ما يحيط بنا سواء كان إنسانا أو طبيعة أخرى.

وظهرت تخصصات كثيرة أصبح الإنسان لا يستطيع التكيف معها مثل: الأخلاق الطبية و الأخلاق التجارية و الأخلاق المهنية و غيرها، وكل هذه الأخلاق في نظر روس يجب أن تنصهر في دائرة أخلاق المسؤولية فالقرن الحالي كما تؤكد روس هو قرن "الأخلاق العملية" لأن كل مشكلة تواجه الإنسان تثير تساؤلات أخلاقية تجعله يبحث عن الرد، ذلك أن التطور العلمي و التقني اليوم أضحى عدوانياً تجاه الكائن الحي و الأحياء، بل على الإنسانية كلها، لأن التقنية أصبحت مسؤولة عن تدهور الفطرة البشرية و انتهاك فطرة الكون و الطبيعة الخارجية، و هذا ما ستوضحه من خلال العنصر التالي

-عصر التحديات التكنولوجية و أثرها على القيم الأخلاقية

أفرز التطور العلمي والتكنولوجي العديد من الآثار السلبية على حياة الإنسان و كثير من الأبحاث العلمية حادت عن غاية العلم، ألا وهي ترقية حياة الإنسان و تسهيل سبل الحياة مما استدعى ضرورة إعادة صياغة أخلاق نظرية جديدة قادرة على الصمود أمام كل المستجدات الراهنة، ذلك أن القواعد القديمة للأخلاق لا تستوعب هذا المجال الذي فرضته التقنية، فنتائج هذه التطبيقات لا يمكن أن تستوعبها الأخلاق التقليدية، إذ حدث تغيير في ماهية الفعل الإنساني مما استدعى كما بناء

أخلاق ترمي إلى تحرير الفرد من العبء الثقيل الذي يرهق وجوده من جراء ازدهار العلوم و السمو به إلى غايات نبيلة فلا يجوز أن تتطور أبحاثنا على حساب القيم الروحية، وهذا ما نصح به العديد من الفلاسفة و من بينهم برغسون إذ أكد على ضرورة التلازم بين الأبعاد الروحية والاكتشافات العلمية للحفاظ على قيمة الإنسان[4].

فقد أفرز التطور العلمي و التقني تراجع مكانة الإنسان، وذلك بتفريغه من محتواه العاطفي و الروحي و تعويضه بجوانب مادية، وهو ما أدى إلى قتل الحياة في الإنسان، و أدى أيضا إلى الابتعاد عن طريق السعادة و تفضيل الجانب المادي على حساب الجانب الروحي رغم أن السعادة مفهوم معنوي، و هذا بدوره قاد إلى القضاء على الروابط المعنوية بين الأفراد و أصبح الأفراد منعزلين ومجوفين رغم انتمائهم إلى مجتمع واحد يقول روسو " حاجات الأفراد المادية ساهمت في تباعد الأفراد بدلاً من تقاربهم"[5]. و الحاجات المادية تسببت في ظهور الطبقية.

وانقلبت وضعية الإنسان رأساً على عقب بفعل سوء توجيه العلم والتقنية إلى أن أضحى من المستحيل مراقبتها أو التحكم فيها بسبب تطورها المذهل وخصوصاً نتائجها السلبية التي عادت على الإنسان خاصة و الكون عامة بالأخطار والشرور، فكل شيء ينقلب إلى تهديد والوضع الذي يفرضه العلم أو التقنية مشبع بالأخطار و الشرور التي أصبحت في قلب الكيان الإنساني ذاته، إذ أن القاعدة الحيوية لهويته الشخصية في ذاتها قد أصيبت بالتقنيات الجديدة و" عندما يهدد العلم

الإنسان، عندها تكون التفاؤلات القديمة عتيقة أو بالية، وعندما ندرك أن العلم يحقق أحياناً أعظم الشرور، إن هذه الأخطار القاتلة تستلزم أخلاق نظرية جديدة"[6]، فالوضع مشبع بالأخطار الجسام لدرجة أن الإنسان ينزع إلى التجريب و التجديد لا في قطاع خارج عنه، بل في قلب الكيان الإنساني ذاته.

وهذا التطور التقني يستدعي توافر تفكير قيمي جديد، و يجب أن نعمل على ابتكار أسس أخلاق نظرية جديدة، من أجل الحد من كل شيء ينقلب إلى تهديد، ويجب صياغة طريقة لأخلاق نظرية محكمة سواء تعلق الأمر بالتقنيات الحياتية أو الطاقة النووية وتقنيات الاتصال أو غيرها. لأن التقنية اليوم تخترع أشياء وتتخذ من الإنسان محل تأثيرها مثلا مراقبة السلوك و المداخلات الوراثية، الدخل المباشر في الدماغ لذا تؤكد روس و ليفيناس على ضرورة عدم تضييع الوقت وضرورة إعادة صياغة الأخلاق النظرية حول المسائل المعاصرة وفق أخلاق المسؤولية، فكل التغيرات الكيفية للفعل الإنساني تقودنا مباشرة إلى قلب الحاجة الملحة إلى أخلاق المسؤولية، كل هذا لا تستطيع الأخلاق النظرية التقليدية إيجاد حلول له، فهي عاجزة أمام سيطرة هاجس التقنية، والأمر القطعي هو أن الأخلاق الكانطية لا تستطيع تحل المشكلات الأخلاقية التي أفرزتها التقنية في عصرنا هذا[7].

وإذا كان مجال الأخلاق السابقة مجالا محدوداً بالفعل الفوري أي أن أوامره قطعية فكيف لها أن تفسر لنا علاقة الإنسان بالتقنية؟

فالوضع الراهن انقلب إلى تهديد لا يمس الإنسان وحده، بل أصبح يشكل خطراً على الطبيعة، فالأمر القطعي المطلق لا يقدم غايات ولا بواعث تستمد من التجربة بل هو الأمر الصوري تماما، و هو شكلي محض يقوم على البنية المفصولة على الواقع ونتائج الأفعال إنه" ينظم دون شرط ودون تعلق بمادة الفعل ولا بهدفه ولا بمضمونه أو بنتيجته وإنما يتعلق بصورته وحسب"[8]، وهذا ما يرفضه ليفيناس و جاكلين روس، لأن البنية تجعل الفعل الأخلاقي منفصل عن الغير، مما جعل الإنسانية بعيدة كل البعد عن الأخلاق الكانطية وعن أخلاق اليقين، فقد أصبح الإنسان المعاصر مضطراً للتفكير في أخلاق جديدة قادرة على مواجهة كل المستجدات نتيجة فقدان الإنسان والمجتمع لمقوماته الأساسية مقومات وأسس وجوده، لأن المجتمع المعاصر فقد معالمه الأخلاقية نتيجة التطور العلمي الذي أحدث انقلابات مهمة مما جعله بصدد البحث عن حضارة جديدة[9]، فقد أصبح الإنسان يواجه المفاجآت المترتبة عن القدرات التقنية، فالإنسانية تتواجد حالياً في وضعية شبيهة بنهاية العالم وضعية فقد فيها الإنسان كل أسسه ومقوماته الأخلاقية بل حتى وجوده إذ أفقدت التقنية الإنسان حقوقه الطبيعية التي لا غنى عنها كالحق في الحياة، والحق في الحرية والاختيار وغيرها.

إن كرامة الإنسان وقيمه الأخلاقية أفقدته إياها التقنية، كل هذا جعل الإنسان يبحث عن حضارة جديدة بأخلاق جديدة قادرة على حماية الإنسان وحفظ حقوقه من هذه الأخطار التي تفرضها التقنية و"

إن خطر الإبادة بالحرب و بالتقنيات الحديثة لا يقتصر على دوائر أصغريه، على حقول خاصة بل على العكس يطال وجود الحياة الإنسانية كلها "[10]. فلم تعد الحرب بالسلاح فقط بل بشتى أنواع الاختراعات العلمية حتى البيولوجية منها.

وإن النتائج والأخطار السلبية للعلم والتقنية لم تعد اليوم تمس أجيال الحاضر فقط بل أصبحت تهدد حياة الإنسانية بأكملها، حياة أجيال المستقبل، كل هذا زاد من حاجة الإنسان والمجتمع عامة إلى ضرورة إيجاد أخلاق جديدة لتضبط قدرات الإنسان العلمية التي وظفت توظيفا غير عقلاني، لأن الأخلاق السابقة سواء كانت من طبيعة غائية أو تعلقت بالواجبات قد تجاوزتها لحياة الإنسانية الراهنة، و هذا ما يسمى " بالفراغ الأخلاقي"، فالإنسان والمجتمع بحاجة إلى أخلاق المسؤولية لأن " تقنية عصرنا، و هي تعرب عن فراغ أنطولوجي تسألنا ... و تدعونا إلى شفافية التفكير إلى صياغة الأخلاق النظرية حول مبادئ جديدة ونظرية جديدة عن المسؤولية"[11] ، فالتقنية اليوم تتخذ من الإنسان محل تأثير مما أوجب أن يكون منطلق الأخلاق النظرية لعصرنا بكل مستجداته الراهنة، يجب أن يكون تجديد المسؤولية، أي مسؤولية إزاء الإنسان الآخر (الغير) وإزاء الطبيعة و الكون بأسره.

لقد أصبح عصرنا غني بالأضرار والشرور التي تمس الإنسان بالدرجة الأولى و محيطه ثانياً، نتيجة التطور التقني والعلمي المذهل، إذ نشهد سيطرة الآلة على أنشطة الإنسان، وهذا ما أدى إلى انقلاب شامل

للمجتمع، كما ازدادت هذه الظاهرة تفاقما في القرن العشرين مع التطور التقني، وأصبح الإنسان ضحية، وهذا ما يدفعنا اليوم للحديث عن المسؤولية بصفة عامة و أخلاق المسؤولية بصفتها فلسفة أولى، إذ يجب على كل إنسان الاحتكام إليها لنضمن سلامة الكون، و نحافظ من خلاله على حياة الأجيال القادمة" ومن الواجب أن نأخذ بعين الاعتبار كيف ندرك محاور الأخلاق النظرية في عصرنا، واقع البيئة التقنية المثقلة بالتهديدات والأخطار، إن العلوم والتقنيات الحديثة تثير بصورة مشروعة الخوف كما أبان ذلك يوناس"[12]، ذلك أن مخاطر التقدم التكنولوجي تهدد البيئة الأرضية بالتشوه و الاندثار.

وبين هانز يوناس أنه عندما تسيطر القدرات التقنية في غياب السلطة والقوانين والأخلاق فإن ما ينتج عن ذلك جملة من التصرفات اللا مسؤولة التي ينجر عنها بالضرورة إلحاق الأضرار بالبيئة بأكملها، ويمكن للإنسان تفادي ذلك إذا ما استرشد بمبدأ المسؤولية لا مبدأ التعويض الذي يعتبره يوناس أمر مستحيل، لأنه ينطلق من ضرورة الشعور بالمسؤولية لبناء الأخلاق، كما أن موضوع المسؤولية عنده يختص بكل ما هو ضعيف وسريع التأثر في الوجود، و نحن مسؤولون عن كل ما هو مهدد بالتلف و الزوال[13]، فالأخلاق التي نص عليها يوناس هي أخلاق الحماية والوقاية والحذر، لأنها تهتم بمصير الإنسان، أي بالعدل المستقبلي للإنسانية، غير أن جاكلين روس لا تكتفي بجعل

المسؤولية مبدأ مثل ما ذهب إليه يوناس و إنما تحولها إلى أخلاق قائمة بذاتها.

وبهذا تنتهي جاكلين روس إلى القول بأن المسؤولية تغيرت تغير كبير في الأخلاق المعاصرة، إذ لم تعد تتناول الحاضر فحسب بل المستقبل المباشر تقول روس" بوجه الإجمال لا تترتب علينا أن ننهض بحمل النتائج المباشرة التي يمكن التنبؤ بها لأعمالنا و حسب بل يجب علينا أن نحمل إلى أبعد جداً من نظرنا على نحو أننا نحافظ على وجود الإنسانية القادمة"[14]. إنها أخلاق تهدف إلى جعل القرارات الحاضرة حكيمة بالإضافة إلى توجيه الأفعال الحاضرة لأجل الأجيال المقبلة، إنها مسؤولية تجاه الإنسانية القادمة، إنها ذات طبيعة مستقبلية.

إن المستقبل هو مسؤوليتنا نحن أبناء هذا الجيل، ذلك أننا إذا لم نقرر مصيرنا المستقبلي فسوف يصيبنا تحول جذري يمس بإنسانيتنا فقد وضعت التكنولوجيا الحديثة يدنا على محيطنا و بيئتنا الداخلية والخارجية معاً، مما يعني أننا نملك سلطة على وجودنا الكامن بالقوة وهذه السلطة هي التزامنا بأخلاق المسؤولية.

وهكذا تظهر في عصرنا فكرة جديدة عن المسؤولية بوصفها حفاظاً على الحياة في المستقبل البعيد غاية البعد، و هو ما جعل روس تنادي بالأخلاق النظرية التي تؤسس لأخلاق المسؤولية - و التي هي امتداد لأخلاق

الغيرية عند ليفيناس كما تذكر جاكلين روس ذلك وتصرح به - و التي تستجيب لمشكلات عصرنا و تحررنا من هيمنة التقنية.

كل هذا جعل جاكلين روس و ليفيناس يؤكدان على أن فلسفة الواجب الكانطية وحدها لا تستطيع أن تتكيف مع حضارتنا التقنية وهي تحتاج إلى تجديد و تفعيل، مما دفعها إلى تقديم بديل لفلسفة الواجب أو تجديد لها، تجديد يتضمن تمام الإنسانية و تمام الحياة ويكون موضوع كل التطورات التقنية المعاصرة التي أصبحت مصدر قلق للإنسانية نتيجة إفرازاتها السلبية عليه، والتي أصبحت تهدد مصيره ومصير الإنسانية القادمة التي نحن مسؤولون عنها دون انتظار أي مقابل منها، أي خدمة الإنسانية من أجل الإنسانية لا غير، وهذا التجديد يكمن في أخلاق المسؤولية، ويعبر عن أخلاق المسؤولية تجاه البيئة في طراز رباعي[15]:

- إعمل على نحو أن تكون نتائج عملك متسقة مع استمرار حياة إنسانية حقيقية على الأرض.

- إعمل على نحو ألا تكون نتائج عملك هدامة لإمكان مثل هذه الحياة في المستقبل.

- لا تفسد شروط البقاء اللا محدود للإنسانية على الأرض.

- أدخل في اختيارك الحالي تمام مستقبل الإنسان بوصفه موضوعاً ثانوياً لإرادتك.

لقد صيغت المسؤولية عند ليفيناس و روس على طريقة كانطية وإن كانت قد تحولت معهما لتتماشى مع الأسلوب العصري، وما يلاحظ على هذه الأوامر القطعية أنها تتمحور حول ضرورة المحافظة على إمكانية حياة إنسانية مستقبلية، لهذا فليفيناس و روس يدعوان إلى ضرورة الخوف و القلق من الخطر المحدق بنا و بأجيال المستقبل، و تلح جاكلين روس على ضرورة التضحية بين الأجيال أي من طرف الأجيال الحاضرة لأجل أجيال المستقبل، إذ يجب عليها أن تفعل ذلك بواجب أخلاقي حتى يمكن للإنسانية الاستمرار في الحياة، إنها مسؤولية الأجيال المقبلة التي تنتظر من أجيال الحاضر التصرف بحكمة ووعي بصيرة لضمان سلامة الإنسانية القادمة، تقول روس" في وسعي المجازفة بحياتي الفردية الخاصة بل وتعريضها للخطر، و لكن ليس في وسعي البتة أن أفعل ذلك بالنسبة لحياة الإنسانية القادمة"[16]، وكأن هناك ضميرا أخلاقي بداخل روس يلزمها بهذه المسؤولية الأخلاقية تجاه الإنسانية القادمة التي لها الحق المطلق في حياة آمنة و سالمة من الأخطار والشرور.

إنها مسؤولية الأنا تجاه الآخر، لا ينبغي علي أن أطالبه بمسؤولية مماثلة، إن الآخر الذي أسأل عنه لا يماثلني فهو ليس بعد أنا، لأن هذا الآخر لم يوجد بعد إنه يسكن المستقبل و أنا فقط من ينبغي أن يعمل في اتجاه ضمان وجود هذا الآخر في المستقبل، إنها مسؤولية تجاه الأجيال اللاحقة، أي تجاه المستقبل إلا أن هذا المستقبل لم يوجد بعد[17]. هذا ما يستدعي منا قوة الدقة والتنبؤ بالنتائج مستقبلاً بالدرجة ذاتها لضخامة

قدرتنا التكنولوجية المخربة والمدمرة، وهذا ما يستدعي الخوف أي الخوف من ضياع الشيء الذي يجب أن نهتم به، ومن هنا يجب أن يكون التنبؤ بالخطر هو الذي يجب أن يوجه الأفعال لأنه عبارة عن وعي وبصيرة و دعوة للحذر و الحكمة و الاحتياط في علاقته مع النشاط التكنولوجي.

وتعتقد روس أن ليفيناس تبنى فكرة هامة وهي أن مسؤولية الإنسان تمارس أمام الله ثم أمام الطبيعة، وكذلك أمام أجيال المستقبل، ذلك أن الكون و الإنسان ما هما إلا مظاهر للذات الإلهية وهذا ما تعتبره روس أنموذج أخلاق المسؤولية المعاصرة لأنها كما تقول" تتناول المستقبل الأبعد للإنسانية و هي تمتد إلى خلفنا البعيد جداً عنا إنها خلو من التبادل و هي تدل في آخر المطاف على مهمة في مستقبل لا محدود"[18]. وهنا يتجسد بعد أخلاق المسؤولية و هو المسؤولية اللانهائية.

وهذه المسؤولية ذات بعد أخلاقي لأجل مستقبل الإنسانية ووقاية الوجود، وهذا النموذج الجديد للمسؤولية لا ينطوي على ارتباط متبادل، حق مقابل واجب أي أن الإنسان ملتزم بالحاضر فقط تجاه الإنسانية مستقبلا، لكن دون حقوق تتبعها، ومنه فهي مسؤولية لا تناظرية، فالالتزامات التي تنشأ عن هذه المسؤولية ليست متبادلة وأفضل مثال على ذلك مسؤولية الطبيب تجاه مريضه، فإذا كان الأول مسؤول عن الثاني فإن الثاني لا يملك مسؤولية متبادلة مع الطبيب.

2-أنموذجا أخلاق المسؤولية

سعت جاكلين روس روز إلى توسيع أخلاق الغيرية عند ليفيناس والانتقال بها من دائرة الإحساس بالمسؤولية تجاه الآخر إلى مسؤولية مستقبلية متصلة بالمستقبل البعيد للإنسانية، ولكي تجعلنا ندرك إدراكاً أفضل لمعنى هذا التقابل الأنطولوجي المتصل بالمستقبل البعيد فإنها تقدم لنا أنموذجين متميزين بالدلالة لتثبت مسؤوليتنا تجاه إنسان المستقبل، و في الحالتين تشمل المسؤولية الوجود التام أي كل ما يحيط بنا، وهي موصولة و مستقبلية، و هذين النموذجين استنبطتهما جاكلين روس من تحليلها لفلسفة الغيرية عند ليفيناس ويتمثلان في :

أ-المسؤولية الوالدية

المسؤولية الوالدية مسؤولية أوجدتها الطبيعة، لأنها لا تخضع لأية موافقة مسبقة كشرط أولـــي، ولكن الطبيعة أصلتها فينـا، لهذا لا رجوع فيها، ولا يمكن إبطالها أو فسخها ،إنها مطلقة لأنها النموذج الأصلي والأبدي لكل مسؤولية، إنها مسؤولية الآباء على أبنائهم فهي مسؤولية الإنسان، الأب تجاه الطفل أي تجاه إمكانية الحياة نفسها في طابعها الهش وقابليتها للضرر والزوال، إضافة إلى ذلك فهي تتميز بالشمولية لأنها تتعلق بالطفل من حيث وجوده الشامل، وليس عبر حاجاته المباشرة وحسب، إنها مسؤولية قائمة على عدم التماثل ما بين السائل (الابن) و المسؤول (الأب)، أي نلبي كل احتياجات الطفل منذ الولادة حتى

النضج، لهذا يعتبر الطفل موضوع أولي لهذه المسؤولية، مسؤولية الآباء تجاه أبنائهم بصفة عفوية دون انتظار المقابل أو رد الجميل تقول روس " إنني أضطلع بالإنسانية القادمة التي لن تقدم لي بالبداهة أية منحة، وهذه اللاتبادلية في الأمر تشكل عنصراً مميزاً مادام واجبي ليس البتة بالصورة المقلوبة لواجب آخر، وهذا ما يذكرنا بالإلزام تجاه الأطفال المولودين فأنا مدين لهم بكل شيء دون أن أنتظر منهم أي شيء "[19].

إنها مسؤولية لا تبحث عن موضوعها النموذجي في العلاقات بين كهول راشدين ذوي ذوات متماثلة وحقوق متساوية، وإنما تستقي نموذجها من العلاقة التي وهبتها لنا الطبيعة بين الآباء و أبنائهم، إنها مسؤولية تعطي للأب على نطاق واسع كونها تنطوي على اللاتبادل، لأن الإنسان يتحمل مسؤولية الذين لم يولدوا بعد، أي واجب الآباء نحو الأبناء حديثي الولادة و الذين سيولدون فيما بعد، بمعنى أن المسؤولية الأبوية تنتقل من الوجود (الطفل) إلى واجب الفعل. و تؤكد روس أن هذه المسؤولية لا يمكن أن تقف بإجازة إنها موصولة لأن حياة الموضوع التي تستمر دون توقف تنجب من جديد مطالبها الآنية للآخر[20] .فهي مسؤولية تتناول مستقبل وجود الطفل، وهي مستمرة دون توقف، لأن حياة الطفل في استمرار، لذا فهي مسؤولية أنطولوجية تهتم بالوجود، وإن كانت علاقة الأنا بالآخر يجب أن تخضع لأخلاق المسؤولية باعتبارها فلسفة أولى فإن مسؤولية الأب عن ابنه مسؤولية مركزية بالفطرة، وهي فلسفة أولى بالقوة. ومن هنا يجب على السلوك الأخلاقي للإنسان أن

يساير السلوك الطبيعي في تمسكه بأخلاق المسؤولية، فكما يتحمل الإنسان مسؤوليته أمام الأبناء دون مقابل، ودون تبادل عليه أن يتمسك بهذه الأخلاق في معاملته للغير ومعاملته لكل الموجودات الطبيعية، وأن يجعل منها فلسفة أولى .

ب-مسؤولية رجل الدولة

تمثل هذه المسؤوليـة قيمة النموذج الأصلي الأبوي للرعاية، و هي مسؤولية تعاقدية

لأنهـا مؤسسة و مشروطة، وبذلك فهي قابلة للفسخ أو الإبطال، إنها مسؤولية تطرح التساؤل عن حياة الجماعة، وهي أكثر عمومية على خلاف المسؤولية الوالدية التي تمتاز بالخصوصية، ذلك أن السياسي يتطلع إلى تنظيم المجتمع بكامله ويستهدف موضوعاً له المستقبل ووجود البشرية القادم، لهذا ترسم روس عبر هذين النموذجين أنموذج المسؤولية المعاصرة، لأنها تتناول المستقبل الأبعد للإنسانية تقول في ذلك " المسؤولية تضطلع بإنسانية و بحياة واهنة فانية، و بما أن الوجود أفضل بما لا نهاية له من اللا-وجود فإن من واجبنا صياغة هذه الإنسانية داخل الوجود ذاته "[21]، فالمفهوم الجديد للمسؤولية لا يقتصر على الحاضر فقط بل يهتم بالأفق المستقبلي، وهذا ما يظهر في نماذج أصلية في مسؤولية الوالدين و رجل السياسة لأجل الإصلاح الممكن تجاه

الأنشطة التقنو علمية التي تهدد حياة الإنسان وتنمي فيه الشعور بالخوف والقلق.

ومنه تبني روس أخلاق نظرية جديدة انطلاقاً من مسؤولية بعيدة تحمل تبعة وجود الإنسانية القادمة، وتسعى إلى فحص استطاعة العلوم والتقنيات الحديثة المهددة للإنسانية و في هذا تقول روس" إن المسار الجديد لعصرنا هو أخلاقيات المسؤولية أخلاقيات الإنسان العصري المنحدر من الإيديولوجيات و الخيال و الأوهام و الذي يأخذ على عاتقه مستقبل الإنسانية فالأخلاقيات المعاصرة هي أخلاقيات نهاية التقنيات أخلاقيات العقل المحبط و الذي أصبح أخيراً راشداً "[22]. فإن كان مجال المسؤولية الوالدية هو تحقيق القوت والحاجات المادية وضمان العيش الكريم فإن مهام المسؤولية الوالدية هو تحقيق السعادة لجميع أفراد المجتمع، لهذا تعتبر مسؤولية رجل الدول أشرف مسؤولية على الإطلاق، طبعا إذا أداها المسؤول على حقها ووفق أخلاقياتها وحقق السعادة للجميع ، وهذا يتطلب من رجل الدولة أن يكون على دراية وتبصر وخبرة و أخلاق.

3-عار الصهيونية

إن فهم فلسفة الغيرية أو فلسفة الاعتراف أو أخلاق المسؤولية أو الحديث عن الأنا وعلاقته بالآخر عند جاكلين روز(نشير هنا الى أن جاكلين روز هذه غير جاكلين روس التي ذكرناها سابقا، وقد ميزنا بينهما

في بداية هذا الكتاب ، فجاكلين روز بريطانية تهتم بالقضايا السياسية من اهم مؤلفاتها القضية الصهيونية، بينما جاكلين روس فرنسية تهتم بالفلسفة و المناهج) و فلسفة جاكلين روز تعطي لأخلاق المسؤولية أبعادها السياسية، وهذا ما سنوضحه من خلال العناصر التالية.

أ/ الصهيونية و اختراق قيم أخلاق المسؤولية

الصهيونية حركة سياسية يهودية، ظهرت في وسط وشرق قارة أوروبا في أواخر القرن التاسع عشر ودعت اليهود للهجرة إلى أرض فلسطين بدعوى أنها أرض الآباء والأجداد، ورفض اندماج اليهود في المجتمعات الأخرى للتحرر من معاداة السامية والاضطهاد الذي وقع عليهم ، وبعد فترة طالب قادة الحركة الصهيونية بإنشاء دولة منشودة في فلسطين، والتي كانت ضمن أراضي الدولة العثمانية، وقد ارتبطت الحركة الصهيونية الحديثة بشخصية اليهودي النمساوي هرتزل الذي يعد الداعية الأول للفكر الصهيوني الحديث والذي تقوم على آرائه الحركة الصهيونية في العالم، وبعد تأسيس دولة إسرائيل عام" 1948م" أخذت الحركة الصهيونية على عاتقها توفير الدعم المالي والمعنوي لدولة إسرائيل، وقد عقد أول مؤتمر للحركة الصهيونية في بازل بسويسرا ليتم تطبيق الصهيونية بشكل عملي على فلسطين، فعملت على تسهيل الهجرة اليهودية ودعم المشاريع الاقتصادية اليهودية.

ومن خلال تطرقنا لفلسفة جاكلين روز سندرك خبايا الصهيونية ومؤامراتها، لقد أسست جاكلين روز فلسفتها على الإتيقا مبرزة العلاقة

بين الأنا والآخر، والتي تتمثل في الصداقة و المحبة و العطاء الإنساني والحوار المفضي إلى الديمقراطية ديمقراطية تظهر كعلاقة بين الأنا والغير قبل أن تظهر في صورتها السياسية في أعلى هرم الدولة ففلسفة روز مناهضة للعنصرية والاستبداد والأحادية، لذلك تناهض الحرب والظلم وتناصر السلم والعدل تماما كما نجده عند ليفيناس، لكن الفرق بينها وبين ليفيناس سيظهر من خلال الرؤية الشجاعة لجاكلين روز في تحليلها للصهيونية و جرائم اليهود و تجاهل ليفيناس لهذا الامر وهو السر في أن جعل ليفيناس فلسفة الغيرية فلسفة اولى ليحمي اليهود و يدمجهم في المجتمعات الغربية، ولو جعل من أخلاق المسؤولية فلسفة أولى فإنه يتوجب عليه التطرق بالتفصيل للأبعاد السياسية لأخلاق المسؤولية، ومن ثم اعطاء موقف واضح من جرائم اليهود، وهذا ما لا يريده ليفيناس حفاظا على كرامة اليهود و سلطتهم.[23]

و السؤال المطروح هنا من يخترق ومن ينادي بالعنصرية في عالمنا اليوم و التي تقف اخلاق الغيرية التي أسسها ليفيناس ضدها ؟ و من المسؤول عن الصراع الإيديولوجي ؟ من تجاوز أخلاق المسؤولية ؟ من يقف وراء الحروب؟ من يقف وراء محاربة التسامح والسلام العالمي هنا سيصمت لسان ليفيناس و يتوقف قلمه، لينطق لسان جاكلين روز ووليم كار؟

تعتقد روز أن العنف قرين الحرب وهذه الأخيرة ممكنه دائما والسلام هو غياب الحرب، فالحروب التي تحمل في طياتها الويلات والموت

و الهلع و الإبادة تتحطم فيها العلاقات البشرية وتتقطع أواصر اللقاء وتغيب أخلاق المسؤولية، فيكثر الخلاف والفرقة فيصبح الأنا و الآخر مشتتين، فالحرب ليست مجرد محنه أخلاقية كما تبين روز، وإنما تجعل الأخلاق سخيفة حيث تتحول السياسة إلى فن الفوز بالحرب عبر الوسائل كافه، كما أن السلام الحاصل بين القوى الخارجية من الحرب يرتكز على الحرب، فهو لا يعيد الهويات الضائعة إلى الموجودات المستلبة، والسلام المحض لا يحصل إلا عبر الهروب من الوجود، من خلال العلاقة مع الآخر، وعبر مفهوم للذاتية يستند إلى خبرة فينومونولوجية تراها جاكلين روز مبهرة يكون بإمكان الذات احتواء ذاتها أكثر مما يمكنها احتواء الآخر، فالحرب تتناقض مع الأخلاق، لأن الحرب لا تحيل إلى الآخر كآخر، بل تحطم هوية الغير فالحرب هي التي توقف علم الأخلاق، لكن الخطأ هو أن تفهمها على أنها ظاهره خارجية، وهذا معناه أيضا انك تخطئ في فهم طبيعة الظواهر الخارجية، ومعناها الميتافيزيقي فالحرب ليست خارجة عن إرادتنا و إنما تخضع لها[24]. تقول روز في كتابها القضية الصهيونية " قال نسيم براخا من غوش قطيف وهي احدى المستعمرات الرئيسية التي تستهدفها الخطة في غزة " اذا حدث – لا سمح الله- وجرى الفصل بيننا فإنني سأدمر كل شيء" [25].

يبدو جليا من خلال هذا أن أهداف الكيان الصهيوني لا يجب أن تعطل و إن حدث ذلك فإن الدمار سيكون مصير البشرية دون تحفظ ودون مراعاة لمبادئ هيئة الأمم، التي يبدو أنها تأسست من أجل كبح جماح العرب فقط، وإدانتهم في كل مرة حتى وإن كانوا مظلومين، ويصمت

ليفيناس صمتا رهيبا أمام كل هذه التصريحات رغم أنه على دراية بكل صغيرة وكبيرة، وعلى دراية أيضا بكل لفظ يتفوه به كل يهودي.

وهذا ما لم تصمت عليه جاكلين روز إذ تقول "ويبدو أن الصهيونية في تكرار غريب للخلاصية تتطلب الرفض أو القبول من دون شروط، فإما أن تكون صهيونيا و إما مناهضا للصهيونية دون جدال" [26]. وقدر اختار ليفيناس أن يكون صهيونيا بدون جدال و صمته خير دليل على ذلك .

وبينت روز أن السلام والحرب متعارضان، فالسلام ليس نهاية حرب، ولا تآلف الفرقاء بعد تباعد وانفصال، ولكنه هو وحده التعددية[27]، بمعنى أنه في الحرب يتم إعادة الملائمة بين الوجود و ذاته فلا يوجد انتصار أو هزيمة فالكل منهزم، لأنه تخلى عن محبة الآخر وتخلى عن مسؤوليته تجاه الآخر، وتخلى عن شعار لا تقتل، فالسلام علاقة مثمرة في زمن لا متناه تقول روز " إن العقيدة التي تقوم على هذه المفارقة المدمرة عقيدة فقدت براءتها...فقد كان التدمير بل العبث، يكمن في أساس قدرة تسقي على التأثير في الآخرين، فهذا المخلص يتعامل مع البشر ، بل يتعايش معهم، وهو يعمل على تدميرهم "[28]. بمعنى أن العقيدة التي تتعايش مع الناس في وقت السلم و تتعامل معهم، لكنها وقت الاختلاف تختار الحرب وتدمرهم هي عقيدة غير سوية و غير بريئة وتقصد هنا العقيدة اليهودية.

وهذه العقيدة المدمرة تملص عاتقها من مسؤوليات كبيرة تجاه الآخر أعلاها المحافظة على روح الآخر وحياته، وتحريم سفك دمه فلفظة " لا تقتل" لها دلالة الآداء وأعمق من ذلك يتجلى فيها البعد الديني والروحي العميق، فعلاقة السلام تنبع من" الأنا " لتحل في الآخر وعلاقتي بالآخر قائمه على مسؤوليتي عنه، وإن تكن هذه العلاقة مبنية على الطيبة والتعاطف والمحبة و الإيثار بيني و بينه، فالآخر عند روز أهم من الأنا وتنادي روز بالسلام العالمي و تحارب الأنانية المفضية للحرب، إذ أكدت أن السلام لا يتطابق مع نهاية القتال لقلة المقاتلين أو بخسارة البعض وانتصار البعض الآخر أي مع نشوء المدافن، بل بعلاقة تنطلق من الذات نحو الآخر، بالإرادة والطيبة حيث الأنا تقوم وتستمر بدون أنانية[29].

مرة أخرى نتساءل : من يقف وراء الحرب و يحارب السلم؟ من تسبب في وأد السلام؟ بكلمة واحدة تجيب جاكلين روز وبكل بساطة وبشجاعة تامة لم نعهدها عند الكثير من الفلاسفة اليهود و من بينهم ليفيناس، تجيب روز قائلة الصهيونية، وتعترف روز بأن الصهاينة هم عدو أخلاق المسؤولية، وهم عدو الغيرية، وهم من قتل فلسفة الاعتراف لأنهم لا يعترفون بالفلسطينيين ولا يرحمونهم، ويبيدونهم دون هوادة وبينت روز أن الفزع وإثارة الرعب ونشوة النصر والانتقام من الآخر - الذي هو الفلسطيني بالدرجة الأولى - هي صفة اليهود وأن " خسران مستوطنة سيؤدي إلى دمار العالم بأكمله ...القضاء على الفلسطينيين مقابل أتفه الأسباب و أتفه الخسائر "[30]. التفريط في مستوطنة واحدة

مرفوض لدى اليهود حتى و إن أدى ذلك الى حرب مدمرة، لا مكان للأخر وللغير في فلسفة اليهود ، و لا وجود لأخلاق المسؤولية الليفيناسية فإلى من يوجه ليفيناس فلسفته؟ يوجهها الى العرب ليزدادوا ذلا وخنوعا حتى ينعتوا بأنهم قوم سلام و يحترمون الآخر. ربما هذا المقصود.

وتدعونا جاكلين روز أن نخاطب أنفسنا بالاحترام قبل أن نطلبه من غيرنا تقول في ذلك " إن طريق التحول أن تبدأ أولا و قبل كل شيء من معرفة الذات "[31]. لذا فغن جاكلين روز تحس بالعار نظير ما يقوم به اليهود من جرائم في حق الفلسطينيين تقول في هذا " وقد جئت الى هذا الموضوع بسبب اني امرأة يهودية، بسبب شعوري المتكرر بالفزع مما يرتكبه الشعب اليهودي باسمي، وسيتضح مما يلي أنني أؤمن بأن خلق إسرائيل سنة 1948 أدى إلى مظلمة تاريخية بحق الفلسطينيين لا تزال تنتظر الإحقاق "[32]. تنعت جاكلين روز الاحتلال الإسرائيلي لفلسطين بالمظلمة التاريخية وهي مواطنة يهودية، وهذا ما لم نلمس له أثرا عند ليفيناس مؤسس أخلاق الغيرية و أخلاق المسؤولية .

وتؤكد روز أن على إسرائيل قادرة على إبادة كل الفلسطينيين - و من وقف إلى جانبهم- في مقابل خسران مستوطنة واحدة فشعار القتل هو شعار صهيوني بامتياز.

وبينت روز بأن الصهيونية معجبة بذاتها، وترفض الآخر، وتفكير الصهاينة تفكير قومي ضيق لا يرتقي للعالمية أو الكونية و هو تفكير

انتقامي بمجرد أن لا تكون صهيوني لكن انتقامهم يأخذ أشكالا وأولويات، بل إنه تفكير عنصري بل هو العنصرية في أعلى درجاتها تقول روز " أرى أن إسرائيل تعطينا بعدا دراميا خاصا لدى التفكير في القومية في العالم الحديث : فشعبها يؤمن بأن الله خلع رداءه عليه، وهو أحيانا يصارع ، لإطراح ذلك الرداء"[33]. بمعنى أن شعارهم الكونية بينما حقيقتهم قومية. لذا فإن فلسفتهم قائمة على المؤامرة والإطاحة بالمخالف والمختلف بكل الوسائل وبشتى الطرق تقول روز " وهكذا اصبح تطبيق المؤامرة العالمية كما نرى عملا منهجيا يستند إلى أحدث الأساليب ويعتمد إلى الاحصاءات والمعلومات الدقيقة وعلى الدراسات المتواصلة وتقوم عليه هذه الشبكة الهائلة المتغلغلة في كل مكان، والتي وضع محفل النورانيين تحت تصرفها كل ما يملكه من امكانيات هائلة تغذيها امبراطوريات المال العالمية التي يهمين عليها كبار المرابين اليهود وخلايا العملاء التابعة للكنيس اليهودي ".[34] .إن ليفيناس - و هو من يدين باليهودية - نادى السياسة بالتزام صوت الحكمة، حكمة المحبة في خدمة المحبة فما نسميه "حب" هو الفعل الذي يتأثر بموت الآخر أكثر من الذات، إنه نتيجة حب الآخر بقوة .[35] .وهذا ما تخالفه الصهيونية تماما.

الصهيونية تسير عكس التمسك بالمسؤولية الأخلاقية، و تتبلور هذه المسؤولية الأخلاقية من خلال الحب، ، والحب هنا منزه، أي أنه حب من أجل الحب، و يشبه إلى حد كبير الواجب من أجل الواجب عند

كانط، والذي ينادي باحترام الإنسان كونه إنسان، وهذا ما تجاوزته الصهيونية في نظر روز حيث أن الصهيونية تخلت عن كل مسؤولياتها عن الآخر المتمثل في الفلسطينيين بصفة خاصة والمسلمين بصفة عامة وتخلت عن نداء الأطفال الضعفاء و هم يستغيثون تحت وطـأة القنابل الإسرائيلية ضـــاربة بالغيرية عرض الحائط و غير مكترثة بندائهم تقول روز " وهكذا فالصهيونية تقدم لنا حركة يبدو أنها غير مسؤولة وغير واقعية".[36] فهدفها بناء الذات لا غير.

ليس هذا فحسب بل إن إسرائيل في نظر روز استعانت بأقوى قوة عالمية وهي الولايات المتحدة الأمريكية لقهر الفلسطينيين و استعبادهم و تحطيمهم تقول روز" و يتضح الآن أكثر من أي وقت مضى أن الهدف الذي تدعمه الولايات المتحدة دعما كاملا هو أن يجعل أية دولة فلسطينية منتظرة (تقوم على ما لا يزيد 47 بالمئة من الضفة الغربية وفق حسابات شارون) غير قابلة للحياة على الإطلاق "[37]. تتساءل روز هنا : أين شعار " لا تقتل" ؟ أين شعار التسامح ؟ تصف روز هذا التحالف وهذه العدوانية الصهيونية الأمريكية على الفلسطينيين والعالم بالعار وتتساءل: متى تتخلى الصهيونية عن العنف، ومتى تتخلص من العار الذي حاق بها، و متى يكون للصهيونية أخلاقيات احترام الغير وأخلاق الغيرية وأخلاق المسؤولية. ومتى يتخلص العالم من عار الصهيونية[38].

وتؤكد روز مرة أخرى أن الصهاينة تخلوا كليا عن لغة الحوار التي تشكل وعي الأنا بالآخر، فالوعي أساسه التصور لغوي، واللغة أساس العلاقة الأخوية، لأنها تسمح بإقامة روابط بين الناس، وهذا ما أكده أيضا ليفيناس نظريا، إذ يدعو إلى الحوار بين الأنا و الأخر وهو سبيل تجنب العنف، وليس بوسع الأنا لقاء الآخر دون أن يجري بشكل أو بآخر محادثه معه، أن تلتقي الآخر يعني أن تتحدث معه أن تتكلم و في نفس الوقت أن تتعرف عليه، و أن تعرف بذاتك هذا التعاطي الذي يتطلبه الكلام هو بالتحديد العمل بدون عنف على حد تعبير ليفيناس[39].

إن علاقتنا بالغير تتطلب بكل تـأكيد الرغبة في فهمه، إلا أن هذه العـلاقة تتعدى كل فهم، لا لأن معرفه الغير تقتضي خارج كل تطفل التعاطف والحب، وهما طريقتان في الوجود متميزتان عن التأمل المحايد، ولكن لأنه في علاقتنا مع الغير نخلق الترابط بين الذوات والتواصل يتأسس على الفهم كعلاقة إنسانية تمثل عمق أخلاقي وأنطولوجي يساهم في دفع الكائن نحو تأكيد رغبته في التواجد مع الآخر لقد تجاوز الصهاينة في نظر روز كل مقومات الحوار وجعلوا أنفسهم أسيادا على العالم وجعلوا من الآخرين عبيدا لهم[40].

اعتراف آخر من وليم كار يبين فيه المؤامرة الصهيونية حيث يقول في كتابه اليهود وراء كل جريمة " إن تقرير مصير الانسانية والسيطرة على مقدراتها الفكرية هدف من أهداف الصراع الحاضر بلا ريب، ولكنه هدف مبدئي لا يزيد عن كونه مرحلة أولية تمهيدية لانطلاق المؤامرة

العالمية بعدها إلى ...إبادة الأديان السماوية والقضاء المطلق على فكرتها وإلغاء جميع العقائد والأديان المؤسسة في الكرة الأرضية بوجه عام، ومن ثم إحلال عقيدة الشيطان محلها أخيرا، واخضاع الإنسانية للاستعباد المطلق والطغيان الأبدي تحت وطأة الدكتاتورية الشاملة لمحفل حكماء صهيون "[41]. حتى المخالفة العقائدية مرفوضة في عرف بني صهيون .

وتنكر روز سلوك الصهيونية في اختزال الأديان الأخرى وعدم الاعتراف بها، فالصهيونية تتمادى في عصبيتها وحقدها تجاه كل الأديان " و أنهم دفعوا العالم إلى الدرب المؤدي إلى الحرب بصورة حتمية فشرعوا بالاستعداد لها "[42]. فالانفتاح على الديانات الأخرى من خلال المنظور الأخلاقي الإتيقي سيؤدي إلى احترام هوية الآخر الدينية ومساعدته على تعزيز حريته وكرامته، ويؤدي إلى الحد من حركات العنف السائدة في المجتمعات المعاصرة. هذا ويعتبر الانفتاح على الديانات مطمح أخلاق المسؤولية، فحضور الآخر إيديولوجيا وبقوة يجعل التعايش معه يأخذ أشكالا غير مسبوقة فلسفيا ففكرة اللقاء مع الآخر إيديولوجيا هو ضرب من اللقاء مع اللامتناهي الذي يوجد داخل الأنا دون أن تمتلك الأنا الغير أو أن تكون معه على نفس الدين غير أن زعماء الصهيونية يخالفون كل هذا " فهم دائما خلف الفساد و الانهيار الأخلاقي وعقلية الحقد والبغضاء "[43].

إن موت الايديولوجيا داخل الذات عند روز بمعنى تجاوز التعصب الإيديولوجي مع الغير هو السبيل لتحقيق أخلاق المسؤوليـــة على أرض

الواقـع، ولا معنى للمسؤولية في غياب السلم في غياب كبح جماع الصهيونية ومن يساعدها، وتؤكد روز على أن الصهاينة هم المتعصب الأول، وهم من يقف حاجزا أمام أخلاق التسامح، لدرجة وصلت إلى قمع الآخر حتى في إيديولوجيته، وتتأسف جاكلين روز على ما وصلت إليه الصهيونية من تعصب إيديولوجي، وتتبرأ من كل هذا باعتبارها يهودية إذ تقول " وقد جئت إلى هذا الموضوع بسبب انشغالي بإسرائيل/فلسطين لأنني امرأة يهودية، بسبب شعوري المتكرر بالفزع مما يرتكبه الشعب اليهودي باسمي "[44]. وهذه المواقف المشرفة لجاكلين روز والمتجسدة في رفضها للسياسة الإسرائيلية تجاه الفلسطينيين تعكس تمسك روز بأخلاق المسؤولية في واقعها دون خوف أو تعصب.

ورغم هذا الاعتراف من روز بجرائم دولة إسرائيل، إلا أن دولة كإسرائيل تجعلك تتراجع عن مثل هذه الأخلاق، وتجعلك تتبنى أسلوب المعاملة بالمثل، إذ لا يصلح ولا يستقيم أن نعامل الآخر بأخلاق المسؤولية ليتمادى هو بعنصريته، ولا يجب أن لا تقتصر قاعدة أخلاق المسؤولية على بعض الناس بحيث لا تأبه سائر الكائنات العاقلة بها، ومع السياسة الإسرائيلية ستكون الحرب أفضل أخلاق نتبناها، لأنها حرب من أجل استرجاع السلم والكرامة وهي خير قصاص. كيف لا ووليم كار ينبهنا قائلا " ويرمي مخطط هذه الكارثة الى تدمير العالم الاسلامي وعقيدته بواسطة الصهيونية السياسية التي ستدخل هي الأخرى في هذه الحرب ومعها دولة النورانيين في فلسطين "[45].

وإذا كانت روز تحمل المسؤولية للصهاينة فنحن من جهتنا نحمل الأمر لأنفسنا لضعفنا و تفرقنا وترك سيادة العالم لمن لا تسامح لهم ومن لا أخلاق لهم، وإن كانت روز تتبرأ مما ترتكبه الصهيونية تجاه الآخر، فإن هذه البراءة تعتبر تعطيل لأخلاق المسؤولية و اعتبارها مجرد فلسفة لا يتبناها الأقوياء، لذا بقيت أخلاق المسؤولية مجرد أخلاق نظرية لا أكثر حتى وإن كانت أخلاق المسؤولية فلسفة أولى بالنسبة لجاكلين روس وفلسفة ثانية بالنسبة لليفيناس، ومعنى أن تكون أخلاق المسؤولية فلسفة أولى معنى ذلك أن الإنسان مسؤول عن كل ما يحيط به سواء كان إنسان أو أي كائن طبيعي آخر دون انتظار المقابل فإنها بقيت مجرد تنظير فلسفي لن يأخذ فعاليته إلا من خلال الممارسة الواقعية والسياسية.

ب- أخلاق المسؤولية و ضرورة تجاوز الصراع العنصري

إذا كانت الكونية طريق إلى عالمية القيم فإن التسامح الذي تنشده أخلاق المسؤولية هو أساس هذا كله، وبلوغ معنى الإنسانية لا يكون إلا بتغاضي الفرد عن ذنب أخيه، حتى و إن اشتد ظلمه له، ومهما بلغ من قسوة التعامل فلا ينبغي أن يحرك ظلم الظالم حقدنا و كراهيتنا له ولكن يجب أن نسامحه ونغفر له أخطاءه وظلمه، لا لشيء إلا لكوننا نرى فيه الوجه الآخر، أي نرى فيه أخ وأب بما أننا أخوة تقول روز " إن هذا اللانهائي المنقوش أمامي في هذا الإهمال المطلق للوجه، والوجه ... مقدس وهو يفرض علي وعلى الأقل حكما، منع العنف عليه"[46]. لذا فما على

الإنسان إلا أن يقتل في نفسه الرغبة في ارتكاب الشر والعنف تجاه الآخر الذي يمثل نصفه الآخر، والذي يتوجب عليه احترامه، فالشعور بالأخوة هو الذي يجب أن يوجه علاقاتنا بغيرنا فإن كان أخوك ظالم لك لا تأخذه من هذه الجهة وإنما خذه على أنه أخوك وعلى أنكما تغذيتما من منبع واحد، فأساس الأخلاق والخير قائم على التسامح والبعد الإنساني وبينت روس أن الاستعداد للتسامح هو فعل للقيم المفتوحة والنامية إنه القرار بأن لا نعاني أكثر من اللزوم وهو ترسيخ لأخلاق المسؤولية، إنه خيار لمحاصرة البغض والكره وبه نتخطى الرغبة في إيذاء الآخرين، إنه قيمة تجعلنا نشعر بالتعاطف والرحمة والرأفة إنه الطريق للشعور بالسلام الداخلي والسعادة وعندما نتسامح نساهم في التئام الجروح وفجأة ندرك و نرى حقيقة ملكوت الحب، حيث يكون هناك تحاب ولا شيء آخر سواه[47]، إن التسامح يولد قيم الصفح ويشجع على التواصل إنه سبيل السعادة الإنسانية، إنه أقصر طريق إلى الله.

وأشارت جاكلين روس إلى أن النزوع الشديد نحو الوحدة و الأحادية و الذي رافق التقـاليد الفلسفية و الميتافيزيقية الغربية منذ القدم وكـذا الاهتمـام بالعقـل والذات والأنا، يشكل طرحا أخلاقيا خطيرا بإقصائه للكثرة والآخرين، إذ أصبحت الفردية استقلالا ذاتيا سيطر على العصر، وجعلت الإنسان بلا حساسية وأصبح البشر مجوفين نرجسيين فقضوا بذلك على رابطة المحبة والصداقة والأخوة بين البشر لتتحول إلى أنانية والتفكير بالذات دون الاعتراف بحق الآخر، كل هذا الانكباب على الذاتية الثابتة جعل روس تؤكد على ضرورة الاعتراف بالآخر والغيرية

فليس من نبل الأخلاق إقصاء الغير أو تهميشه أو إدماجه في سياج الذاتية، لذا عادت روس إلى ضرورة تغيير الرؤى الميتافيزيقية نحو الآخر و الاعتراف به، كل هذه الصفات التي تقصي الآخر وتمارس العنف ضده بكل تعصب و ديكتاتورية جعلت روس تنادي بضرورة تجاوز هذا الوضع المقلق، والذي يهدد مسيرة الإنسانية، وهذا لن يتأت إلا من خلال التفاعل مع الآخر و الاعتراف به و تحمل المسؤولية تجاهه، فالآخر يتمتع بحقه علينا في الاحترام كآخر مختلف عنا و الإصغاء إليه و الحوار معه[48].

وهذا يدل على وجوب الشعور بالمسؤولية الناجمة عن التقويم الخلقي، والنظرة الشمولية إلى الأحسن للإنسانية الحالية أو الإنسانية في الأجيال القادمة، لتصبح بذلك الأخلاق قائمة على الوعي والفهم والسلوك، وتسعى إلى إنقاذ غرض مرموق وبمسؤولية شاملة النظر والعمل.

ولن يكون هذا إلا بتخليص العالم من شر الصهيونية يقول وليم كار " ويجب ان يتم إعلام الرأي العالمي بالخطر الداهم، وحثه على القيام بحملة ضغط عالمية لإيقاف المؤامرة الصهيونية وتحركاتها الخفية عند حدها، هذا هو السبيل الأوحد لمنع حدوث الكارثة العالمية المبينة وإحباط مخطط المؤامرة العالمية وانقاذ الإنسانية بالتالي من أضخم فاجعة تفوق من هولها كل ما عرفته في تاريخها، والتي سيتلوها الاستعباد المطلق المادي والفكري والروحي للجنس البشري... وهناك أخيرا ظاهرة ستلفت الأنظار في بعض بلدان العالم الحر هي ظاهرة انتشار الدعوات الالحادية والمبادئ الهدامة علنا فيها، وعلى مسمع من السلطات ومشهد

منها ، دون أن تحرك هذه السلطات ساكنا للدفاع عن سلامة شعوبها وتلافي الخطر الكامن، والسبب في ذلك معلوم بداهة وهو نفوذ علماء النورانيين وتغلغل شبكات المؤامرة في قلب تلك البلاد واوساطها المسؤولة" [49]. والسؤال المطروح هنا أين ليفيناس؟ وأين أخلاق الغيرية التي نادى بها؟ وأين أخلاق المسؤولية التي صدع رؤسنا بها؟

الهوامش

1- مصطفى عبده، فلسفة الأخلاق، ط2، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1999، ص37.

2- موزة أحمد راشد العبار، البعد الأخلاقي للفكر السياسي عند الفرابي و الماوردي و ابن تيمية، رسالة ماجستير غير منشورة ج1، جامعة الإسكندرية، 2000، ص26.

3 - جاكلين روس ،الفكر الأخلاقي المعاصر، ص108.

4- H. Bergson , Les deux Sources de la morale et la religion, Edition Flammarion, Paris, 1966, P330.

5- Rousseau , Emile ou l'éducation , préface par M J Labbe , librairie classique Eugène Belin, Paris, 1883,p154.

<< car , à ne considérer que le besoin physique , il doit certainement disperser les hommes au lieu de les rapprocher >>

6- جاكلين روز، الفكر الأخلاقي المعاصر، ص18.

7- جاكلين روز ، فلسفة الأخلاق المعاصرة، ص271،270.

8 - المرجع نفسه، ص271،270.

9 جاكلين روس ، الفكر الأخلاقي المعاصر، ص82.

10- جاكلين روس، مغامرة الفكر الأوربي، ص362.

11- جاكلين روس، الفكر الأخلاقي المعاصر، ص68.

12- المرجع نفسه، ص19.

13 – المرجع نفسه، ص18.

14- جاكلين روس، الفلسفة الأخلاقية المعاصرة، ص271.

15 - جاكلين روس ، الفكر الأخلاقي المعاصر، ص40،39.

16- المرجع نفسه، ص.82

17- المرجع نفسه، ص82.

18- المرجع نفسه، ص84.

19- المرجع نفسه، ص.83،82

20- جاكلين روس ، فلسفة الأخلاق المعاصرة، ص272.

21- جاكلين روس ، الفكر الأخلاقي المعاصر، ص84.

22- جاكلين روس ، مغامرة الفكر الأوربي، ص409،408.

23- محمد بكاي، أرخبيلات ما بعد الحداثة، رهانات الذات الإنسانية ،من سطوة الانغلاق إلى إقرار الانعتاق، إدارة مكتبه الرافدين، بيروت ، 2018، ص133.

24- جان لاكروا ،نظره شامله على الفلسفة الفرنسية المعاصرة،ص116.

25- جاكلين روز، القضية الصهيونية، ترجمة محمد عصفور، المركز القومي للترجمة، القاهرة ، 2007، ص 56

26- نفسه ،ص62

27- Emmanuel Levinas ,totalité et infini ,p342.

28-جاكلين روز،القضية الصهيونية، ص52

29 - Emmanuel Levinas, totalité et infini ,p342.

30- جاكلين روز، القضية الصهيونية،ص52

31- المرجع نفسه، ص31

32- المرجع نفسه، ص 42

33-المرجع نفسه، ص57

34- وليم كار، اليهود وراء كل جريمة، ترجمة خير الله الطلفاح،ط2،دار الكتاب اللبناني بيروت،1982، ص 25

35- Emmanuel Levinas , totalité et infini, p 07.

36- جاكلين روز، القضية الصهيونية،ص65.

37- المرجع نفسه، ص61.

38-المرجع نفسه، ص253.

39- Emmanuel Levinas, Difficile liberté, le livre de boche Beblio, essais, Paris ,1990,p21.

40-جاكلين روز، القضية الصهيونية، ص43.

41- وليم كار، اليهود وراء كل جريمة، ص34

42- المرجع نفسه ،ص224.

43 - المرجع نفسه،ص252.

44-جاكلين روز، القضية الصهيونية، ص 42.

45- وليم كار، اليهود وراء كل جريمة، ص 28

46- جاكلين روس ، الفكر الأخلاقي المعاصر، ص66.

47- أندري كرستون ، المشكلة الأخلاقية و الفلاسفة، ترجمة عبد الحليم محمود، أبو بكر ذكرى ،دار الشعب، بيروت ، 1979، ص.84

48- جاكلين روس، الفكر الأخلاقي المعاصر،ص68.

49- وليم كار، اليهود وراء كل جريمة، ص 38

خـــــــاتمة

خاتمة

بناء على ما سبق يتبين أن ليفيناس يؤسس لفلسفة أخلاقية تدعو إلى الاعتراف بالآخر ومصالحته ومشاركته بدلا من إقصائه وتهميشه وطمس هويته، ويؤكد ليفيناس على ضرورة استبعاد النظرة السلبية والعنيفة للآخر، و بهذا يكون قد وضع الأنا في حراسة الآخر، بل يرى أنه من واجب الأنا التضحية من أجل الآخر، والآخر ليس له أن يعبر ويظهر إلا عن طريق وجهه أين يفتح الوجه نوافذ الذات للزائرين ويسمح لها بزيارة الآخرين عن طريق وجهه المختلف وهكذا يدخل الوجه على عالمنا عبر حقل غريب، و الإنسان الغريب يأتي إلينا من الخارج منفصلا عبر وجهه المتجلي، ذلك أن دلالة الوجه حسب ليفيناس خارجة عن كل عادة أو نظام.

إن أخلاق المسؤولية عند ليفيناس ترتبط ارتباط وثيق بأخلاق الغيرية القائمة على حب الآخر و تمجيده بعيدا عن كل مقابل، وهي فلسفة قائمة على تبني فكرة المسؤولية، هذه الفلسفة تتخذ من المسؤولية أساسا لحب الآخر ، فالمعنى الحقيقي لتحملي مسؤوليتي تجاهك، هو أنني أحبك وإنسانيتي مستمدة من احترامي لك ووجهك مرآة أبصر بها عيوبي، وأقل ما يقال عن فلسفة كهذه أنها فلسفة إنسانية تفتح الأفق للآخر ، فالذات لا تحس بمكانتها ووجودها إلا من خلال تمجيد الغير و التضحية في سبيله بعيدا عن أي غاية أو مقابل أو منفعة.

ويبدو أن فلسفة الواجب الأخلاقي تكررت مجددا و في ثوب جديد مع ليفيناس. فهل علينا أن نقول لك مجددا يا ليفيناس يداك ربما نقيتان لكنك لا تملك يدان، هل كنت يا ليفيناس كنت تعيش تحت وطأة الخوف من الصهيونية؟ أو التواطؤ أو غض النظر؟ و كل هذا قلل من شان أخلاق المسؤولية التي تنادي بها، وجعل أخلاق المسؤولية عندك بحاجة الى أخلاق أخرى هي أخلاق الشجاعة وأخلاق الصدق و أخلاق الاعتراف ،الاعتراف بخطر الصهيونية وانتهاكها لشعارك لا تقتل الذي ناضلت من أجله فلسفيا ونظريا.

من المؤسف جدا أن يتكلم الفلاسفة اليهود عن أخلاق المسؤولية و الاعتراف والغيرية و هم يبيدون غيرهم بشتى الوسائل الاخلاقية وغير الاخلاقية، ومن المؤسف أن يتكلم الفلاسفة العرب عن أخلاق التسامح وفلسفة العيش المشترك وهم يبادون في كل مكان ودمهم مستباح و أرضهم مسلوبة و أرواحهم بلا ثمن.

لم يتكلم ليفيناس فقط عن المسؤولية و إنما عن أخلاق المسؤولية، و هي أخلاق تدعونا إلى الإيثار والمحبة والتسامح واحترام الغير، وملخص أخلاق المسؤولية عند ليفيناس لا للعنف لا للقتل فمن جهة يتأثر ليفيناس بالتلمود وينادي باحترام الغير، ومن جهة أخرى تبيد الصهيونية الآخر باسم الكتاب المقدس وتنهي وجوده في ظل صمت ليفيناس، وهذا ما حاولت جاكلين روز أن تكشفه

وكـذلك بينـه ولـيم كـار مـن خـلال كشـفه لمـؤامرات الصـهيونية في احتقار الآخر وإبادته وإنهاء وجوده بشتى الوسائل غير الأخلاقية وينادى وليم كار العالم و يترجاه لإيقاف مؤامرات الصهيونية قبل فوات الأوان، كما بين مؤامراتها ضد الاسلام و المسلمين .

ما قدمه ليفيناس كأخلاق للمسؤولية هو درع واق لليهود و تعرية ونحـر للعـرب والمسـلمين، إذ الظـالم الصـهيوني المنتصـر يشـتكي والمنهـزم المظلـوم عليـه ان يواسـي المنتصـر بتبنيـه لأخـلاق الغيريـة وأخلاق المسؤولية الليفيناسية.

والسؤال المطروح هنا ما قيمة الوجه الفلسطيني يا ليفيناس أم أن الفلسطيني بدون وجه؟ وهل الصهيونية غير مطالبة بتبني أخلاق المسؤولية ؟ و هل هي خارج دائرة فلسفتك ؟

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

مقدمة ص13

حياة ليفيناس و نشأة فلسفته ص17

تطور مفهوم المسؤولية في الفلسفة ص37

الأنا في الفلسفة الغربية المعاصرة..... ص56

الأنا في فلسفة ليفيناس..... ص57

تعريف الآخر..... ص63

تعريف الاختلاف..... ص65

الغير في فلسفة ليفيناس..... ص 70

الأخلاق كميتافيزيقا أولى عند ليفيناس..... ص 71

قيمة الوجه عند ليفيناس ص89

اخلاق المسؤولية عند ليفيناس .....ص 96

أخلاق المسؤولية و تقديس الغير ص117

الحاجة إلى أخلاق المسؤولية..... ص141

عصر التحديات التكنولوجية و أثرها على القيم الأخلاقية ص144

أنموذجا أخلاق المسؤولية.....ص154

عار الصهيونية ص157

الصهيونية و اختراق قيم أخلاق المسؤولية.....ص158

أخلاق المسؤولية و ضرورة تجاوز الصراع العنصري ص169

خاتمة..... ص175